

التزكية

تزكية العقل

الدكتور مَعَاذُ سَعِيدِ حَوَيَّ

The Purification of the Brain

2 0 1 1





الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه

﴿قد أفلح من زكاها* وقد خاب من دساها﴾

[الشمس: ٩-١٠]

«اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها
أنت وليها ومولاها»

المرحلة الأولى من مراحل التزكية

التزكية

تزكية العقل

□ التزكية: تزكية العقل

تأليف: الدكتور معاذ سعيد حوى

الطبعة الاولى: ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©

الرقم المعياري الدولي: ٩٧٨-٩٩٥٧-٥٤٢-١٣-٩ ISBN:

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: ٢٠١٠/٨/٢٨٥١

* لوحة الغلاف من عمل الفنان محمود أبو زغد، محفوظة باتفاق وعقد ©.



دار النور المبين للدراسات والنشر

تلفاكس: ٤٦١٥٨٥٩، جوال: ٠٧٩٥٣٩٤٣٠٩، ص.ب: ٩٢٥٤٨٠ عمان ١١١٩ الأردن.

البريد الإلكتروني: info@darannor.com الموقع على شبكة الانترنت: www.darannor.com

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي سابق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or copied in any form or by any means without prior written permission from the publisher.

٥

المنهج المعرفي والفكري لمرحلة الطالبين

الفصل الأول

حقيقة العقل ووظائفه

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف العقل

المبحث الثاني: قدرات العقل ووظيفته

المبحث الأول تعريف العقل

العقل لغة: الْعَقْلُ: الْحِجْرُ^(١) والنَّهْيُ ضِدُّ الْحَقِّقِ، وَالْمَعْقُولُ: مَا تَعْقِلُهُ وتدركه بقلبك، وَالْعَقْلُ: التَّثَبُّتُ فِي الْأُمُورِ، وَسُمِّيَ الْعَقْلُ عَقْلاً لِأَنَّهُ يَعْقِلُ صَاحِبُهُ عَنِ التَّوَرُّطِ فِي الْمَهَالِكِ أَيْ يَحْجِسُهُ، فَالْعَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَحْجِسُ نَفْسَهُ وَيُرْذُّهَا عَنْ هَوَاهَا، وَعَقَلَ الشَّيْءَ يَعْقِلُهُ عَقْلاً: فَهَمَهُ^(٢)، وَالْعَقْلُ: الْمَنْعُ، لِمَنْعِهِ صَاحِبُهُ مِنَ الْعُدُولِ عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ^(٣).

يفهم من هذه المعاني للعقل أنه به تدرك الأمور وتفهم، وبه تميز الأمور، فيُعرَف به ما فيه مصلحة الإنسان وما فيه مفسدته، فيكون سبباً في البعد عن المهالك وسبباً في البحث عن المنافع.

العقل اصطلاحاً: عرف العلماء العقل بتعريفات كثيرة، بعضها يجعل العقل هو الروح، لأن العقل لا إدراك له بلا روح، وبعضها يجعله هو القلب، لأن محل العقل القلب، وبعضها يجعله هو الإنسان لأن ما يميز الإنسان عن غيره العقل، وبعضها

(١) أي المنع.

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور ج ١١ ص ٤٥٨ - ٤٦٢، ومما قاله أيضاً في العقل: والجمع عُقُولٌ، عَقْلٌ يَعْقِلُ عَقْلاً، وَعَقْلٌ فَهُوَ عَاقِلٌ وَعَقُولٌ مِنْ قَوْمٍ عَقْلَاءَ، رَجُلٌ عَاقِلٌ وَهُوَ الْجَامِعُ لِأَمْرِهِ وَرَأْيِهِ، مَأْخُوذٌ مِنْ عَقَلْتُ الْبَعِيرَ إِذَا جَمَعْتَ قَوَائِمَهُ، وَقِيلَ: الْعَقْلُ هُوَ التَّمْيِيزُ الَّذِي بِهِ يَتَمَيَّزُ الْإِنْسَانُ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ، وَيُقَالُ: لِفُلَانٍ قَلْبٌ عَقُولٌ، وَلِسَانٌ سَوُولٌ، وَقَلْبٌ عَقُولٌ فَهَمٌّ، وَيُقَالُ: عَقَلَ: تَكَلَّفَ الْعَقْلُ، وَالْعَقْلُ: الدِّيَّةُ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِلدِّيَّةِ عَقْلٌ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْتُونَ بِالْإِبِلِ فَيَعْقِلُونَهَا بِفَنَاءِ وَلِيِّ الْمَقْتُولِ، وَأَصْلُ الْعَقْلِ مُصْدَرُ عَقَلْتُ الْبَعِيرَ بِالْعِقَالِ أَعْقَلَهُ عَقْلاً، وَهُوَ حَبْلٌ تُثْنِي بِهِ يَدَ الْبَعِيرِ إِلَى رَكْبَتِهِ فَتُسَدُّ بِهِ.

(٣) الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، ص ٦٧، لزكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري أبو يحيى، تحقيق:

د. مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

يجعله غريزة تعرف بها العلوم، وبعضهم يجعله ذات العلوم.

وبعض العلماء يستعمل العقل اصطلاحاً في معانيه اللغوية، وهو الأقرب لتعريف حقيقته وماهيته^(١).

وعرف كثير من العلماء العقل بأنه التعقل وإدراك العلوم، فلم يلتفتوا إلى إثبات ماهية للعقل أو آلة هي التي بها يعقل الإنسان، بل عدوا العقل هو ذات العلوم، ومنهم من لم يعمموا في ذلك كل علم، بل جعلوه في حدود العلوم البديهية التي يدركها كل أحد، فقالوا:

«العقل: مناط التكليف»^(٢)، و«هو العلم ببعض الضروريات»^(٣)، فلا يكون تكليفاً بالإيمان إلا بوجود العقل، أو بوجود تلك العلوم التي توصل إلى إدراك الحقائق الإيمانية.

وهذا المعنى ليس ببعيد عن طريق القرآن الكريم، فقد أطلق العقل على المعقولات والمعلومات التي يدركها العقل، كما سيأتي بيانه.

والذي أرجحه في تعريف العقل جمعاً بين التعريفات السابقة وغيرها أن العقل: هو اللطيفة التي يدرك بها الإنسان العلوم والمعاني والأشياء، وبها يميز بين الحق والباطل، والنافع والضار.

ومعنى قولنا: «لطيفة» أي إن العقل أمر معنوي موجود، لكنه غير حسي، وإن ارتبط بموضع حسي من الجسد.

(١) انظر في تعريفات العقل: التعريفات للجرجاني ص ١٩٦-١٩٧، رقم ٩٨٥، والحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة ص ٦٧،

(٢) كتاب المواقف، ٢ / ٨٦، لعصّد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م. وذكر الإجماع على ذلك من أهل الملة.

(٣) وهو قول الإمام أبي الحسن الأشعري، المواقف: ٢ / ٨٦.

العقل كما ورد في النصوص ومعانيه:

ذكرت مشتقات لفظة العقل في القرآن الكريم والسنة كثيراً، وغالباً ما تطلق على أحد ثلاثة أمور:

العقل: من حيث هو آلة لإدراك العلم، والعقل: من حيث عملية الإدراك والتعقل التي توصل لإدراك العلوم، والعقل: بمعنى العلم الذي يستفاد بالعقل^(١).

العقل بمعنى الشيء الذي به يعقل الإنسان ويدرك العلم والمعاني والحقائق: وكل موضع رفع فيه التكليف عن العبد لعدم العقل، فالعقل فيه بهذا المعنى^(٢). قال ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم»^(٣).

العقل بمعنى استعمال العقل في عملية التعقل والفهم والإدراك والتمييز:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦]، أي لماذا لا تستعملون عقولكم، لتعلموا بها ما يجب أن تعلموه، والآية تدل على أن الذي

(١) وقد ذكر الراغب في مفردات القرآن، ص ٣٤١، اثنين منها، فعبر عن ذلك بقوله: «العقل: يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل».

(٢) الراغب، مفردات القرآن، ص ٣٤٢.

(٣) حديث صحيح، وفي رواية للحديث: «عن المجنون حتى يبرأ» - وفي رواية: يفيق - وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقل»، روى هذا الحديث على اختلاف في ألفاظه وتقارب في معناه: الترمذي في جامعه رقم ١٤٢٣، وأبو داود في السنن رقم ٤٣٩٨ و ٤٤٠١ و ٤٤٠٣ وابن خزيمة في صحيحه رقم ١٠٠٣ وابن حبان في صحيحه ١٤٢ و ١٤٣، والحاكم في مستدركه رقم ٩٤٩ وصححه على شرط الشيخين، والدارقطني في سننه رقم ١٧٣، وغيرهم، والحديث بمجموع رواياته وشواهدة يصل إلى حد الصحة. وقوله عن الصبي حتى يعقل أي يبلغ الاحتلام كما بينته روايات أخرى.

يستعمل العقل ويستفيد من معلوماته التي أدركها، ويبنى قناعاته وتوجهات قلبه عليها، ثم يعمل بجوارحه بما يوافق ذلك فهو العاقل حقاً، وأما مَنْ أدرك شيئاً وعرفه ثم تصرف بخلافه فكأنه بغير عقل، لأنه يستوي مع غير العاقل في عدم الاستفادة من المعلومات، لكنهما لا يستويان في أثر ذلك، فمن لا عقل له لا حساب عليه، ومن لا يستفيد من عقله ومعلوماته فهو محاسب على ذلك، ووصفه بعدم العقل من باب التقرّيع له والتنبيه.

قال تعالى ذاكراً قول الكافرين يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، فهو لاء لم يستعلموا عقولهم، ففاتهم معرفة الحق، ونتج عن ذلك أن تكون حياتهم وأهواءهم وأعمالهم كلها خاطئة خاسرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فالآيات نافعة لمن يستعمل عقله في النظر إليها والتفكر بها فيهتدي بذلك إلى معرفة خالقها وقدرته.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، فهو لاء وصفوا بأنهم لا يعقلون لأنهم لا يستعملون عقولهم فيما يجب أن تدركه وتعرفه.

وعن أنس بن مالك ؓ قال: كان رسول الله ﷺ يُعيد الكلمة ثلاثاً، لتُعقل عنه^(١)، أي لتفهم عنه ويُدرك معناها.

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٦٤٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، ونحوه الحاكم رقم ٧٧١٦ وصححه على شرط الشيخين.

العقل بمعنى المعقول والمعلوم الذي يدرك بالعقل:

ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، أي لتعرفوا ما هو معقول يفهمه العقل ويدرك صوابه وأنه حق وخير.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، لا يعرفون قدر هذا النبي ﷺ، وهذا الأمر يدركه العقل بالتفكير والأخذ عن الشريعة.

وقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ أي وما يعلمها.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، أي لعلكم تعرفون ما يدرك بالعقل.

وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل فالمقصود فيه عدم علمهم لما يجب أن يعلموه بعقولهم^(١)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، أي لا يعرفون ما يجب أن يعرفوه بعقولهم، وذلك لأنهم لا يستعملون العقل.

والقرآن يستعمل العقل بهذا المعنى كثيراً، وينفي وجوده عن الكافرين، ولا ينبغي أن يُظنَّ أنه ينفي عنهم العقل الذي به التكليف، لذلك قال والذي رحمه الله: «ويطلق العقل في الشريعة على شيئين:

أولاً: على ما هو مناط فهم الخطاب، وإذا وجد فقد أصبح الإنسان مكلفاً ضمن شروط.

(١) مفردات القرآن، الراغب، ص ٣٤٢.

ثانياً: على قبول خطاب الشارع والعمل به، وذلك هو العقل الشرعي. وعلى هذا يحمل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١٠] ﴿نَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤] ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] ^(١).

هل للعقل محل في الجسم:

بغض النظر عن محل العقل، فإن الذي يهمننا في هذا الكتاب حيثما ذكرنا العقل أن نتكلم عما يدركه العقل ويعرفه ويميزه، سواء أدركه في القلب أو في الدماغ أو بالروح، فلا يتوقف على هذا الأمر أثر في علم التزكية ^(٢).

وحيث ذكرنا القلب فنعني جانب القلب والعواطف والقرارات من قبول أو رفض لما يردُّ من العقل، حتى لو كان العقل في القلب، فكأن القلب حينئذ يضم أكثر من عالم.

(١) الأساس في السنة وفقهها، قسم العقائد، سعيد حوى، ج ١، ص ٢٩.

(٢) وقد نبه بعض العلماء إلى أن هذا الأمر لا يترتب عليه فائدة، فأينما كان العقل ومهما كانت ماهية العقل؛ فذلك لا يهمننا، إنما يهمننا إثبات عملية التعقل وما ينتج عنها من مُدركات ومعقولات، والقرآن الكريم لم يذكر العقل أبداً وإنما ذكر عملية التعقل، كقوله: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣] و﴿يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤] و﴿عَقْلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥] و﴿نَعْقِلُ﴾ [الملك: ١٠]. انظر: نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة: الكتاب الثالث: أصل المعرفة طرقها وأنواعها، د. راجح الكردي، دار الفرقان، عمان، ط ٢، ٢٠٠٣م، ص ١٢٤.

المبحث الثاني قدرات العقل ووظيفته

- يولد الطفل وعنده الاستعداد المحض لإدراك المعقولات، وهي قوة محضة خالية عن الفعل، أي لم يستعملها الطفل بعد، فعقله خالٍ عن الصور والتصورات والمعقولات، خالٍ من المعلومات التي تدرك بالعقل، ويسمى البعض هذا العقل بالنظر إلى هذه الحالة: العقل المجرد^(١).

والله تعالى أشار إلى وجود هذا الاستعداد العقلي عند الإنسان منذ ولادته، وأنه لا يكون عندئذ عند الإنسان أي معلومة لعدم استعمال العقل وأدوات المعرفة قبل ذلك، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

- والعقل خلق قادراً على إدراك البديهيات عالماً بالضروريات، فهو مستعد بذلك لاكتساب النظريات، ويسمى العقل بالنظر إلى هذه الحالة: العقل بالملكة.

ولذلك خوطب الإنسان بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا﴾ [الروم: ٨]، ليستعمل ملكته العقلية ويتنفع منها.

- فإذا استعمل الإنسان عقله وتكرر ذلك صارت فيه نظريات مختزنة محفوظة

(١) ويسميه بعضهم بالعقل الهولي، ذكر الجرجاني هذه التسمية وما بعدها: العقل الهولي، والعقل بالملكة، والعقل بالفعل، والعقل المستفاد، وعرفها في كتابه: التعريفات، ص ١٩٧-١٩٨، وعلى الرغم من أنه يمكن أن تكون هذه التسميات قد دخلت إلى المسلمين من الفلاسفة؛ إلا أنني أثبتتها لأن معانيها صحيحة، وقد أوضححتها كما فهمتها من كتاب الجرجاني، وذكرت من النصوص ما يدل عليها أو يشير إليها.

فيه، يقدر على استحضارها متى شاء من غير تكرار استعمال قدرة التعقل، ويسمى العقل بالنظر إلى هذه الحالة: العقل بالفعل.

وهذه المعقولات والمعلومات هي التي تكفي لحصول الهداية، ويكون الإنسان قادراً على تحصيل الهداية من خلالها مع بلوغه سن البلوغ، وإلى هذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمُ ^(١) مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

- فإذا كثر استعماله لهذه النظريات والحقائق ونتائج التعقل؛ قويت هذه النظريات في ذهن الإنسان بحيث لا تكاد تغيب عنه، ويسمى العقل باعتبار هذه الحالة: العقل المستفاد.

وإلى هذا جاءت الإشارة بالمدح لأولي الألباب المتفكرين والمتذكرين، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

- أهم أسباب تفاوت المعلومات المعقولات بين شخص وآخر:

قدرة العقل على الإدراك والتعقل، واستعداده للنظر والتفكير والفهم والاستنتاج والتمييز بين الأشياء؛ تبدأ مع الإنسان من أول لحظة في حياته، وزيادة ما يعلمه الإنسان وما يعقله ويدركه لا ترجع إلى أن القدرة العقلية تزيد مع الأيام كلما كبر الإنسان، وإنما تزيد المعلومات والمعقولات والمُدْرَكَات وتفاوت من شخص إلى آخر لأسباب أخرى:

١. فتفاوت بحسب استعمال كل إنسان لقدرة على الإدراك والتعقل.

فالعقل واحد، وقدرته واحدة في الجملة، بمعنى أن الحد الأدنى الذي يُتَوَصَّل به إلى الهداية، ويتوقف عليه التكليف بالإيمان وأحكام الدين؛ أمر مشترك عند جميع

(١) قال بعض المفسرين: أي عمرناكم إلى البلوغ والرشد، فهو السن الذي تستطيعون التذكر والفهم فيه، فكنتم مكلفين عند بلوغه.

العقلاء، لكن أثر استعمال العقل هو الذي يزيد أو يُنقص وجود المعقولات والمعلومات عند هذا أو ذاك، كإنسان قادر على البناء ولم يبن أي غرفة، وإنسان قادر على البناء وبنى عمارات كثيرة، فهي موجودة عنده، وليست عند الآخر، لكنها من حيث قدرتهما ابتداءً متساويان.

٢. كما تتفاوت المعقولات وتزداد بحسب تهيؤ الأسباب والمعينات على تحصيل المعلومات، فمن كان له بصر وسمع ساعد ذلك عقله في استفادة معلومات ومعقولات أكثر، فالعقل في جانب من معلوماته مُتَّجِّجٌ إلى منافذ جسدية تعينه على إدراك الأشياء، فالسمع والبصر والشم والذوق واللمس؛ كلها تساعد العقل في إدراكه للأشياء.

وأعظم هذه المنافذ السمع والبصر، لذلك جاء ذكرها في القرآن مراراً مع الفؤاد، الذي قُصِدَ به القلب وما فيه عقل يدرك التكليف والمسؤولية، قال تعالى مبيناً فضله ومنتته علينا بما أكرمنا من عقل ومنافذ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

والإنسان حينما يستفيد معلومات من خلال البصر وما يراه، ومن خلال السمع الذي يسمع به من غيره من الناس فستفيد معلومات، لا بد أن يستعين بالعقل على إدراكها وفهمها وتحليلها وتقييمها، ولو كان خالياً من العقل لم تفده هذه المنافذ.

٣. كما تتفاوت المعقولات بقدر إدراك اللغات، إذ لا بد حتى يستفيد الإنسان من السمع، أن يدرك اللغات التي يتكلمها غيره، ليفهم عليهم، فإذا فهم أوصلوا إليه معلومات، أو ذكَّروه بمعلومات، وقد تكون بعض تلك المعلومات مما يمكن أن يصل إليه الإنسان بعقله، ولو استعمل عقله لوصل إليها، لكنه كان غافلاً عنها أو غافلاً عن التفكير فيها، فحصلت معرفته من غيره، لا لعدم قدرته، بل لعدم استعمال عقله.

والطفل الذي لم يعقل الكلام واللغات تفوته هذه الفائدة، لذلك تقل

المعقولات والمعلومات عنده، لا لعدم قدرته على فهمها، بل لعدم تفكيره فيها وعدم وصولها إليه من غيره، فإذا أدرك لغة ما؛ استفاد من خلالها كما ذكرنا، ولأجل ذلك أمرنا الله أن نقرأ ونتعلم، ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، ﴿فَتَسْلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

ولأجل ذلك أنزل الله القرآن مذكراً لأهل العقول، ليختصر على الناس طريق المعرفة التي تنشأ عنها الهداية، قال تعالى: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوهُمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقال سبحانه: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

٤. كما تتفاوت المعلومات بحسب استعمال العقل في الجمع بين المعلومات الموجودة عنده، واستنباط نتائج منها لم تكن عنده.

٥. كما تتفاوت المعلومات المعقولات بحسب اهتمام صاحبها بتذكرها والانتفاع منها، فتزداد عنده سرعة استحضارها، وتزدحم على الذهن الحقائق الكثيرة فتعيّنه على الاستنتاج الأدق في مسألة ما.

لذلك نجد القرآن ينبه على التذكر ويأمر به ويذكر أسبابه كثيراً، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

٦. كما يظهر تفاوت المعقولات بحسب القدرة على التعبير عنها، وليس هذا من نقص العقل، وإنما هو راجع إلى الآلة المعبرة عما في العقل، فيُظن نقصاً في العقل، وهو نقص في غيره.

٧. وبقدر ما ينتفع أحدنا من عقله ومن الأمور السابقة بقدر ما تظهر فائدة العقل عنده، ولا شك أن أثر ذلك يظهر في تزكية الإنسان لنفسه، وصلاح حياته وحاله، وموافقته للحق والصواب وبُعدِهِ عن الباطل والخطأ.

وسنذكر في هذا الكتاب أهم ما يجب أن يعقله الإنسان ويدركه ويعرفه، عسى أن يستفيد من عقله الاستفادة الأكبر، فيكون على خير حال.

وقد لا يستفيد الإنسان من كل ما ذكرنا لأمر في نفسه، حال بينه وبين الاستفادة من عقله، لذلك كان لا بد أن نبه إلى الموانع التي تحول دون التعقل أو الاستفادة من معلومات العقل، وسنبينها فيما بعد إن شاء الله.

- المهمة الأساسية للعقل هي التفكير أو التفكير للوصول إلى العلم:

فبالعقل يمكن تحصيل العلم، ولذلك نجد النصوص القرآنية كثيراً ما تتوجه إلى الكافرين والغافلين تطالبهم بالتفكير للوصول إلى الحقائق.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِآلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ [الروم: ٨]، ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤].

والتفكير هو نظر العقل في الأدلة بترتيب أمور معلومة في الذهن ليصل من خلالها إلى علم أمر مجهول عنده^(١).

قال والدي الشيخ سعيد حوى رحمه الله: «وللدماغ تكليفه: وهو أن يفكر فيربط الأسباب بمسبباتها، ويربط الأدلة بمدلولاتها؛ ليصل إلى الحقيقة، وللقلب تكليفه: وهو أن يقبل الإسلام الذي أوصل إليه العقل، وأن يستنير بنور الإسلام»^(٢).

(١) عرف الجرجاني الفكر بأنه «تصرف القلب بالنظر في الدليل»، التعريفات: ص ٧٦، رقم ٣٤٢، وعرفه في موضع آخر بأنه: «ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول»، التعريفات: ص ٢١٧، رقم ١١٠١.

(٢) الأساس في السنة وفقهها، قسم العقائد، ج ١، ص ٢٤.

وقال: «وللإنسان دماغ هو محل التفكير والمحاكات، وقد يكون محل خزن المعلومات، وهو محل إدراك الخطاب، وهو مخزن الحواس ومركز الإحساس، ومنظم الجملة العصبية إلى غير ذلك من المهام، وهناك الروح التي تعطي الجسد والقلب والدماغ الحياة»^(١).

وقال: «والعقل هو مناط التكليف، وهو الجهة التي يدرك فيها الإنسان فحوى الخطاب، وهو وسيلة الإنسان للمعرفة، وهو [أي العقل] مفطور على معان، فعنده بدهيات مستقرة، وله قوانين مغروسة، وهو يصل إلى المعرفة من خلال التعليم والاستقراء أو الاستنتاج، ومن ههنا وجد علم المنطق الاستقرائي والاستنتاجي، فأن يتعرف الإنسان على علم المنطق للتعرف على قوانين العقل، وعلى ما هو بدهي، وعلى ضوابط الاستنتاج الصحيح، والاستقراء الصحيح، فهذا القدر لا حرج فيه»^(٢).

والمرأة تستوي مع الرجل في القدرة على استعمال العقل للوصول إلى الهداية، ونقصان عقل المرأة^(٣) لا يعني أنها لا تعي التكليف، أو أنها لا تستطيع أن تدركها، فالعقل التكليفي الذي تُدرك به المرأة الخطاب التكليفي الشرعي هي فيه كالرجل، ولا يعقل أن يكلفها الشرع بشيء وهي غير قادرة على تعقله، فالمقصود بنقصان العقل غير هذا المعنى^(٤).

(١) الأساس في السنة وفقهها، قسم العقائد، ج ١، ص ٢٧.

(٢) الأساس في السنة وفقهها، قسم العقائد، ج ١، ص ٢٨.

(٣) الوارد في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم «ناقصات عقل ودين».

(٤) قال والدي رحمه الله: «المرأة بالنسبة للعقل التكليفي الذي هو محل إدراك الخطاب كالرجل، إلا أنها تختلف عن الرجل في مقدار التكليف وفي طبيعته نوع اختلاف، بسبب تركيبها الذي يتناسب مع دورها الحياتي، فهي من هذه الحيثية ينقص دينها وعقلها عن دين الرجل وعقله». الأساس في السنة وفقهها، قسم العقائد، سعيد حوى، ج ١، ص ٤١.

الفصل الثاني

تزكية العقل والفكر

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تزكية العقل بفعل ما يوصله إلى الحق

المبحث الثاني: تزكية العقل بترك ما يمنعه من الوصول إلى الحق

المبحث الثالث: أثر تزكية العقل واستقامة الفكر في تزكية النفس في سائر جوانبها

۲۲

المبحث الأول

تزكية العقل بفعل ما يوصله إلى الحق أي كيف نصل إلى الهداية

إن تزكية العقل إنما تكون باستعمال العقل على وجهه الصحيح، والاستفادة منه في الوصول إلى الصواب والحق، وأن يلزم استعماله في التوصل إلى الحقائق والانتفاع منها، مع تطهيره من التفكير المنحرف والنتيجة المنحرفة الخاطئة، فذلك الذي تبدأ به تزكية النفس، وهو الذي يقود إلى تزكية القلب وأحواله، وإلى تزكية الجوارح وأعمالها. تزكية العقل والفكر هي هدايته إلى الحق والخير والصواب، في أهم الحقائق في هذا الوجود^(١).

وهذا تفصيل يبين الحال الذي يجب أن يكون عليها العقل، ليكون زكياً مهتدياً:

١. استعمال العقل:

إِنَّ مَنْ خُلِقَ سَوِيًّا غَيْرَ مَجْنُونٍ وَلَا مُخْتَلٍ فِي عَقْلِهِ، فَعَقْلُهُ فِيهِ الْقُدْرَةُ عَلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ وَطَرِيقِ الْهُدَايَةِ، وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَعْمَلَ الْعَقْلَ فِيمَا أُعْطِيَ مِنْ قُدْرَةٍ عَلَى التَّفَكُّيرِ وَالتَّمْيِيزِ وَالْوُصُولِ إِلَى الْهُدَايَةِ.

والله تعالى حينما أمرنا بالتفكير في مثل قوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠] ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]؛ فإننا يحثنا على استعمال العقل، وينبهنا إلى أننا يمكن أن نصل إلى الحق باستعماله.

(١) لذلك سيكثر الحديث عن الهداية في هذا المبحث، لأنها هي مظهر ونتيجة تزكية العقل والفكر.

ونبهنا الله إلى أن عدم التعقل يمنع كل فائدة، حتى من الأنبياء، قال تعالى:
﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَتَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢].

واستعمال العقل لا بد أن يكون استعمالاً سليماً منطقياً، حتى يصل إلى النتائج السليمة من خلال البدهيات التي أوجدها الله في عقل الإنسان، ومن خلال جمع الحقائق والمعلومات الثابتة ثم استنباط نتيجة صحيحة منها، وباستعمال براهين وحجج وأدلة سليمة تدل على النتيجة، ومن خلال الاستقراء والاستنتاج، وبلاستفادة من الحقائق التي توصل إليها الآخرون.

واستعمال العقل في التعقل والنظر والتفكر والتدبر والتذكر والتفهم والفقه^(١)، كلما كان أكثر؛ كلما كانت نتائج المعرفة وإدراك المعقولات المهمة أكبر.

وكلما استفاد الإنسان من أسباب زيادة المعقولات والمعلومات^(٢)؛ كلما كان أوسع معلومات وأقرب إلى الهداية، وخاصة إذا اعتنى بالبحث عن المعلومات الأهم.

٢. بحث العقل عن الحقائق الكبرى المهمة:

العقل إذا استعمل ينفع صاحبه، لكنه إن اقتصر صاحبه على التفكير به في أمور خسيصة أو في جوانب دنيوية ولذات ومصالح قريبة؛ فإن فائدته تكون خسيصة أو متواضعة بقدر خسة ما فكر فيه.

وإذا أهمل الإنسان التفكير بعقله في الأمور الخطيرة والمصالح الكبرى، وفي البحث عن الحقائق المهمة في الوجود؛ فإنه لا يكون قد استفاد من عقله الاستفادة المطلوبة.

والحقائق الكبرى التي يجب أن يهتدي إليها الإنسان ويبحث عنها هي أركان الإيمان، وما يبنى عليها، وما يُلْتَحَقُّ بها، فإن أخطأها ولم يصل إليها فذلك هو الضلال

(١) هذه الوظائف كلها ذات علاقة بمعنى التعقل، وقد نبه الله تعالى إليها كثيراً.

(٢) وقد ذكرناه قبل قليل تحت عنوان أهم أسباب تفاوت المعلومات المعقولات من شخص إلى آخر.

والانحراف الكبير، فمهما أصاب الإنسان خيراً وعرف أموراً غير ذلك؛ فلن يتنفع منها، ما لم يصل إلى هذه الأمور التي هي أهم وأولى بالمعرفة^(١)، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

٣. توجه العقل والقلب والجسد إلى طلب الحق والهداية:

إذا أدرك الإنسان أن هناك حقائق كبرى لا بد أن يبحث عنها، فإنه لا يتحرك نحو البحث عنها وطلبها إلا إذا رغب قلبه بذلك، فإذا تحركت رغبة الإنسان وإرادته ومشيتته إلى طلب الحق فهذا الذي يمكن أن يهتدي إليه بإذن الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٧-٢٨]، ثم بين أن مشيئة كل واحد من العالمين متوقفة على مشيئة الله، فقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وليس المقصود من الآية أن يقول للناس إنكم حتى لو أردتم الهداية فإني أمتنعكم إياها، فالله لا يظلم الناس مثقال ذرة، وإنما المقصود بيان إرادته ومشيتته المطلقة، وبيان أنه حتى مع إرادتك الهداية؛ قد تكون عندك أمور أخرى تمنع الهداية، فسنة الله أنه قد لا يهديك إلا إذا استكملت أسباب الهداية التي طلبها منك، وقد بينها جميعاً في كتابه، وهذه أهمها؛ توجهك إلى الحق ورغبتك بمعرفته والإيمان به، ومنها أن يسعى بجسده طالباً طريق الهداية باحثاً عنها وسائلاً.

- قد يستعمل الإنسان عقله كثيراً، وقد يستعمله أحياناً في البحث عن الحقائق المهمة، لكنه لا يتنفع منه الانتفاع المطلوب ما لم يكن حريصاً على أن يعرف الحق والخير والهداية، فواجب الإنسان أن يجعل التفكير متجهاً عنده إلى معرفة الحق والخير، وأن يجعل ذلك همّه الأول.

(١) بيّن الراغب في مفردات القرآن، ص ٢٩٨ أن الضلال ضربان: ضلال في العلوم النظرية، كالضلال في معرفة الله ووحدانيته ومعرفة النبوة ونحوهما... وضلال في العلوم العملية، كالضلال في معرفة الأحكام الشرعية التي هي العبادات...

إن حرصك على الحق، وطلبك الهداية إليه، وسلوكك سبيل معرفة الحق، وحرصك على العمل به؛ سبب في أن يهديك الله أكثر، ويُعَلِّمَكَ ما لا تقدر على معرفته، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَوَسَّعَتْ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، فمن بذل الهداية التي يستطيعها أعطاه الله من الهداية مزيداً.

ولما كانت التزكية والهداية بمعنى واحد، وتتضمن شيئاً واحداً، لكنها تسمى هداية من كونها توافق الحق، فمن وُفِّقَ إلى الحق في فكره وإرادته وعمله سمي مهتدياً، وتسمى تزكية من كونها يحصل بها تطهير النفس وترقيتها، وإنما تتطهر وترقى بقدر موافقتها للحق، فإذا وجدت الهداية عند إنسان كان من أهل التزكية، والله تعالى جمع بين التزكية والهداية إشعاراً بتكامل المعنى بينهما حيث قال ذاكرًا قول موسى لفرعون ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْفَىٰ * وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨-١٩]؛ لما كانت الهداية والتزكية مترادفتان من حيث الحقيقة، فالحديث عن الهداية من الحديث عن التزكية.

والهداية تأتي في القرآن الكريم بمعاني متعددة^(١)، أحدها أنها تأتي بمعنى هداية

(١) قال الراغب في مفردات القرآن، ص ٥٣٨: «وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه: الأول: الهداية التي عمَّ بجنسها كل مكلف، من العقل والفطنة والمعارف الضرورية، التي أعمَّ منها كل شيء بقدر فيه حسب احتياله، كما قال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ، ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على السنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِآمِرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]. الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي يَكْفُرْ آمَنَ وَأَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِذْنِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿فَهْدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]. الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة، المعنى بقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٥]، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ فَخَيَّرَ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]. وهذه الهدايات الأربع مرتبة، فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثلاث».

العقل وإعطائه القدرة على معرفة الحق والبحث عنه، فوصول العقل إلى الحقائق هداية^(١).

والله تعالى أعطانا العقل الذي به الهداية وبه التمييز بين طريق الخير والشر وطريق الثواب والعقاب، كما دل على ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]^(٢)، وقوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، أي أعطيناهم الأسباب التي تحصل بها الهداية والتعليم، فلم يهتدوا ولم يتعلموا^(٣).

وما من شيء جاء به النبي محمد ﷺ إلا وهو موافق للحق، فجازت تسميته بالهدى، ومن وصل إليه وأدركه فقد اهتدى، ومن لم يصل إليه فقد ضل، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وواجب الإنسان أن يجعل أول اهتماماته وأول أعماله أن يهتدي إلى الحقائق الكبرى والعقائد المهمة، ولا يقدم عليها شيئاً، ومن استخف بذلك ورغب عن الهداية وقدم غيرها عليها فذلك الخاسر لأنه قبل الضلالة، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ بِحَدِيثِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

فلا تنتظر أيها العاقل لتعرف الحق في الآخرة، فلا ينفعك ذلك هناك، بل ابحث عنه وتعرف عليه في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا﴾

(١) قال الجرجاني في التعريفات: ص ٣١٩، رقم ١٥٨٣: «الهداية: الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، وقد يقال: هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب». وقال الراغب، مفردات القرآن، ص ٥٣٨: «الهداية دلالة بلطف».

(٢) قال الراغب، مفردات القرآن، ص ٥٤٠: «وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣] ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا السَّبِيلَ﴾ [الصافات: ١٨] فذلك إشارة إلى ما عرف من طريق الخير والشر (مجاز القرآن ٢ / ٢٩٩) وطريق الثواب والعقاب بالعقل والشرع».

(٣) انظر: الراغب، مفردات القرآن، ص ٥٤٠.

فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٥﴾ [طه: ١٣٥]، ففي الآخرة تزول الغشاوات، ويدرك الإنسان من كان على طريق سوي في استعمال عقله وهدايته إلى الحق.

٤. تزكية العقل وترقيته: باستعمال العوامل المعينة للعقل، والتي تقرب إليه معرفة الحقائق أو تكون سبباً في انتباهه إليها:

- نظر العقل في الآيات الكونية والآيات القرآنية، ودلالاتها:

إن التفكير في آيات الله التي بثها في الكون تثير العقل وتفكيره ليهتدي إلى الحق، أي إلى معرفة الحقائق الثابتة الموجودة، قال سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]، فبه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ على أن الآيات المبثوثة في الكون تثير العقل وتحركه نحو التفكير في الحقائق وإدراكها.

وقال سبحانه: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، فكان السؤال تنبيهاً إلى آيات كونية تدل على الله.

فقد يتعرف عقل الإنسان على ربه بالنظر في هذا الكون مع التفكير والاعتبار: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] فيؤديهم التفكير إلى الاستسلام للحق: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقد يتعرف عقل الإنسان على ربه من خلال آيات القرآن الكريم، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١]، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

كما يعرف القرآن على صفات الله وأسمائه التي تذكر بها كثير من الآيات، كقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

ورغم أن الحقائق الكبرى يمكن معرفة أكثرها وأهمها بالعقل، فالله تعالى لم يتركنا إلى عقولنا وتقصيرنا في استعمالها، بل أنزل على لسان رسله تنبيهاً إليها وتذكيراً بها وتعليماً لها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس: ١٠٨]، فما على الإنسان إلا أن ينظر ليجد الحق في هذه الشريعة ويرى صحتها وصوابها، فإن اهتدى إليه فقد انتفع، وإن أضله وانحرف عنه فقد غوى وأخطأ الطريق السليم.

وإلى مثل ذلك نبه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الزمر: ٤١].

وقد يتعرف الإنسان على نفسه ودنياه وسنن الله فيها من خلال الآيات، قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقوله: ﴿ فَانظُرُوا ﴾ تنبيه لنا إلى استعمال عقولنا بالتفكير والنظر حتى يحصل الاعتبار والعلم من خلال ذلك، وقال عز وجل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۚ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

والذي يرى آيات الله ويرفض دلائلها يطمس الله على عقله فلا يهتدي إلى الحق، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ١٠٤].

- خضوع العقل للمعجزات:

يقول الله سبحانه: ﴿ فَقُلْنَا أَصْرَبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ۖ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣].

إن نظر الإنسان في المعجزات الخارقات للعادة التي آيد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام؛ توصله إلى أنهم حق مرسلون من عند الله، فما أجرى على أيديهم ما لا

يستطيعه الخلق جميعاً إلا ليدلنا على أنهم مرسلون من عنده وصادقون فيما يقولون وفيما يخبروننا به عن الله، فالذي يلتفت إلى هذا فيعرف أن ما أنزل من عند الله حق فهو ذو اللب والعقل والقلب: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَآءِ الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد: ١٩].

فبدلاً من أن نبقى في غفلتنا أو ندعي عجز عقولنا عن الوصول إلى الحقائق أرسل الله الرسل لينبهونا إلى الحق ويخرجونا من غفلتنا: ﴿ لِنُذِرَكُمْ مَّا أَنتِزِعَآبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس: ٦].

- الرجوع إلى الوحي في معرفة الحقائق:

ما دام قد ثبت بالمعجزة صدق النبي ﷺ وأنه لا يأتي بشيء من عنده، وإنما يأتي به من عند الله بالوحي، فلزم عقلاً أن يستسلم الإنسان لما يأتي من جهة الوحي، لأنه من عند الله، والله عز وجل أعلم منا وأعلم من جميع خلقه، فكيف نقدم علمنا وما استنبطته عقولنا على ما جاءنا من عند خالقنا.

والله تعالى ما أنزل القرآن ليصرفنا عن عقولنا، وإنما أنزله لعلنا نعقل ونهتدي به إلى الحق، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، فليس ما جاء به الوحي - من كتاب أو سنة - مخالفاً لما تصل إليه العقول، وإنما هو مثير للعقول ومنبه لها على الحقائق.

كما أن الوحي يدلُّ العقل على أشياء لا يمكن أن يصل إليها بفكره ونظره، كوصف الجنة والنار وبيان وجود الملائكة والجن، وغير ذلك ﴿ وَيَعْلَمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١]، ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٠].

وما جاء به الوحي ولم تدركه العقول، فعلى العقول أن تسلم له، لأنه لا يتصور أن يكون خطأ لأنه من عند الله الخالق العليم الحكيم، فلا تجهد نفسك في التفكير

والتوصل إلى الحقائق التي أبانها لك الوحي والشرع، بل خذها وأنت مرتاح مطمئن مستسلم مستيقن.

فلا تتساءل: لماذا جعل الله الصلوات خمساً، ولماذا جعل كل صلاة عدد ركعاتها كذا، ولماذا فرض الزكاة بمقدار كذا، ولماذا فرض الحجاب على النساء، ولماذا لم يأمر بتحرير كل العبيد، ولماذا أمر بالقتال على ما فيه من شدة، ولماذا أجاز للرجال زواج أربعة ولم يجز للمرأة إلا واحدة، ولماذا جعل الله ميراثاً للنساء، ولماذا جعل ميراث النساء نصف ما للرجال، ولماذا حرم الربا، وغير ذلك من التساؤلات الجاهلة، التي تحمل في طياتها الاعتراض على الله، واتهامه في تشريعاته، والتي ينسون معها أن الله مالك الجميع، فالحق له في أن يحكم فيهم ما شاء، وأكثر هذه التساؤلات وأمثالها قد أجاب عنها العلماء وبينوا حكمتها، فهي لا تخفى على العقول، ولكن مع ذلك فواجب الإنسان - سواء فهم الحكمة أم لا - أن يسلم لله فيما شرع وقدر.

ولما كان النبي ﷺ لا يأتي بشيء من عنده، وكل ما جاء به من عند الله، فما جاء به كله حق وهداية، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَبِإِنِّ الْحَقِّ يُظْهِرُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فمن وصل إلى ما جاء به النبي وأدركه فقد اهتدى، ومن عمل به فقد زكى نفسه، ومن لم يصل إليه فقد ضل.

- الاستفادة من أخذ عن الوحي وتعلم منه:

ومن أخذ عن الأنبياء وتبعهم وحمل علمهم من العلماء والدعاة والوعاظ الصادقين، فهم كذلك هداة إلى الحق، يقربون إليك ما يمكن أن يهتدي إليه العقل، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]، فالعاقل يستفيد منهم ويأخذ عنهم ما اهتدوا إليه من الحق، ويختصر على نفسه طريق الوصول إلى الحقائق، ويسألهم عن الحق فيدلونه، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ فَسَّكَ بِهِ حَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقد تأتيك هذه الحقائق بطلب أو بغير طلب منك، من خلال تعليم غيرك لك، أو من خلال تنبيه عالم أو داعية أو واعظ أو صديق، أو من خلال قراءة كتاب. ومن لم يهتد إلى الحق ولا اهتدى بهدى غيره فاتته الهداية قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]، تنبيهها أنهم لا يعلمون بأنفسهم ولا يقتدون بعالم^(١).

- الرجوع إلى الله تعالى الذي يملك العقول ويقدر على هدايتها:

إذا وصل الإنسان إلى معرفة الخالق من خلال العقل أو الوحي، وأدرك أن الله هو المالك لكل شيء وهو الذي بيده كل شيء، فعليه أن يتوجه بعقله إلى طلب الهداية منه، فهو يملك العقل وغيره ويملك هدايته، ورجوع العقل إلى الله وإنابته إليه من أعظم الأسباب التي تعطي الهداية، قال تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] ويهدي إليه من ينيب، وقال تعالى في الحديث القدسي: «فاستهدوني أهدكم»^(٢)، فالله تكفل بهداية من يطلب الهداية منه، فواجبنا أن نرجع إلى الله طالبين منه أن يزكينا برحمته وفضله، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١].

ومن صدق الطلب من الله أن نتخذ أسباب الهداية والتزكية التي أمرنا الله بها، فمن تتبع ما يرضي الله وبحث عنه وسعى إليه؛ كتب الله له الهداية وأخرجه من ظلمات الجهل إلى نور معرفة الحقائق والعلوم، قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

(١) انظر: الراغب، مفردات القرآن، ص ٥٤١، وقال: «ويقال المهتدي لمن يقتدي بعالم».

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٧٧، جزء من حديث.

- تنبّه العقل عند الأحداث والبلايا التي توظف العقل:

جعل الله تعالى في هذا الكون وفي خلقنا من الأحداث والمواقف ما يوظف العقل وينبهه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُأْسٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلَ أَمْسٍ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

ختم الله الآية بقوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تنبيهاً لنا أن في مراحل حياتنا وفي موتنا ما ينبه العقل، ويوظف العاقل، ويلفت نظره إلى غيب يؤثر في عالم الشهادة، يمكن أن تدرك العقول أثره ووجوده.

والمواقف المنبهة لعقل الإنسان والموقظة له كثيرة، منها: موت قريب أو صديق، أو دفن ميت، أو حادث، أو مرض مفاجئ، أو خسارة تجارة، أو بلاء كبير، أو شيب الشعر، أو غير ذلك، ﴿أَوَلَمْ نَعِزِّكُمْ مَا بُدِّعُوا فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ التَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

- تنبه العقل من خلال الأثر الفطري في نفسه:

فالله تعالى خلق النفوس وفطرها على حب الحق والميل إلى العباداة، فمن لم تتأثر فطرته بالمؤثرات السلبية والعوامل الخارجية المفسدة؛ كان قريباً في نفسه من الحق، قال تعالى: ﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

خاتمة المطلب:

إن استعمال العقل بالنظر والتفكير على وفق المنهج الصحيح الموافق للوحي، مع تجنب الأسباب والمؤثرات التي تحول دون الاستفادة من العقل والفكر؛ إن ذلك هو الذي يعطي علماً ومعرفة بالحقائق، التي تشكل في مجموعها القيم الكبرى التي هي أساس الثقافة الصحيحة، فهي تُكوّن القواعد الأساسية والضوابط في حياة الإنسان

على كل مستوى، سواء على مستوى باطن الإنسان أو ظاهره، قوله أو فعله، ما يخصه وما يعم المجتمع، ما يتعلق بالمؤمنين وما يتعلق بغيرهم، وفي تلك الحقائق ما يكون النظرة الصحيحة إلى الدنيا، وما يدعو إلى استعمال الدنيا على وجه صحيح، ينشئ حضارة ذات قيم وأخلاق وتقدم، وفي تلك الحقائق ما يكون النظرة الصحيحة إلى الآخرة، ويدفع إلى الإعداد لها، والتأهل لنعيمها الدائم.

وسنبين في الفصل الثالث أهم هذه الأمور، فنبين ما هي نتائج النظر والفكر الصحيح، الناتجة عن استعمال العقل على الوجه الصحيح، وإذا وجد هذا النظر العقلي وأثمر نتائجه من الأفكار والمعتقدات الصحيحة؛ تأهلت النفس لتزكية غيره من عوالمها، كالقلب والجسد.

وحتى يستفيد الإنسان من عقله وما يصل إليه من حق فلا بد أن يتجنب الأسباب والمؤثرات العقلية والقلبية الجسدية التي تمنع الوصول إلى الحق والهداية، أو تكون سبباً في الطرد من الهداية، وفي المبحث الآتي بيان ذلك.

المبحث الثاني

تزكية العقل بترك ما يمنعه

من الوصول إلى الحق

تمهيد:

هناك أعمال باطلة تمنع الوصول إلى الهداية والحق، أو تُردُّ الإنسان إلى الكفر، منها ما يؤثر على العقل مباشرة؛ بأن يحول دون استعمال العقل والاستفادة منه، ومنها ما هو قلبي يحول دون الاستفادة من العقل عقوبة من الله، ومنها ما يرجع إلى الجوارح من مخالفات ومعاصي تؤدي إلى إفساد القلب وإبعاده عن الحق.

ولما كانت بعض أعمال العقل والقلب والجسد السيئة لها تأثير يعود على العقل بالإبطال؛ فكان لا بد من بيانها هنا، وبيان دليل تأثيرها السلبي على فكر الإنسان وهدايته، فذلك من سنن الله تعالى التي يُعامل بها خَلْقُه، أخبرنا عنها في كتابه وسنة نبيه ﷺ.

وإنما نبين ذلك لأمرين:

الأول: للتحذير من تلك المؤثرات، ليحذر منها طالب الهداية والتزكية، ويتنبه أنه حتى ولو كان عقله وفكره سليماً قد لا يجد الهداية، لا لمشكلة في العقل، بل لمشكلة في القلب أو الجسد، من مرض في القلب أو معصية في الجوارح؛ كانت حائلاً أو سبباً في عدم استفادته من عقله وفكره والحقائق التي توصل إليها.

الثاني: أن يعلم الدعاة إلى الله أن عدم إيمان الكافرين، ليس دائماً يرجع إلى عدم معرفة الحق أو عدم القناعة به، بل أكثر الكافرين يعرفون الحق مقتنعون به، قامت عليهم حجته والمعجزات الدالة عليه، لكنهم بسبب مرض من أمراض القلوب

امتنعت الهداية عنهم، فهو لاء ليس علاجهم أن نكرر عليهم الحقائق وأدلتها، فيكرروا الإنكار، بل علاجهم أن نبين لهم وجود أمراض في قلوبهم، وأن نعينهم في الخروج من تلك الأمراض، إن استطعنا، وسنرى خلال هذا المبحث أن كثيراً من أقوال الشياطين والكافرين وأعمالهم لم يَرِدَّ الله عليها بالحجة والمنطق، بل اكتفى ببيان مرض القلب الذي أدى إليها، من اتباع الهوى أو الغفلة أو الكبر أو الحسد...

في هذا المبحث ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أمور تبعد الإنسان عن استعمال عقله فلا يصل إلى الهداية والحق.

المطلب الثاني: وجود فساد في القلب قد يؤدي إلى الكفر وإلى عدم الانتفاع من الحقائق والعقائد.

المطلب الثالث: من أعمال الجوارح التي قد تؤدي إلى الكفر وعدم الوصول إلى الهداية.

المطلب الأول:

أمور تبعد الإنسان عن استعمال عقله فلا يصل إلى الهداية والحق

- التكذيب بالحق ورفضه والكفر به حينما يصل إليك أو تتوصل إليه:

الحق لا يجوز أن يُجعل باطلاً، ولا يجوز لإنسان أن يقرّر عكسه، وأي تكذيب للحق فهو رفض للصواب والخير، واختيار للباطل والشر، وإذا كان تكذيباً بالحقائق الكبرى فهو الكفر، لذلك كتب الله أن الهداية لا تدخل قلوب المكذبين والكافرين: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وكتب الله أن لا يهدي من كفر به وظلم، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، وأعظم الظلم عدم الاعتراف بالخالق وحقه.

وتكذيب الحق والمجادلة فيه بغير علم ولا حجة ولا منطق صحيح من علامات الاستكبار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَعْتَرِ سُلْطَانِ أَتَنَّهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَلِيغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، فواجب الإنسان أن يكون مصداقاً بالحق مؤمناً به مدعناً له.

- الافتراء على الله:

والافتراء هو تَعَمُّدُ الكذب وَقَلْبُ الحقائق، والقصد إلى ذلك، ولا يخفى على صاحبه أن متوجه إلى الباطل ومعرض عن الحق والهدى، فكيف يرجو أن يهدي وهو يرفض الهداية، لذلك حذر الله من الافتراء عليه وبين أنه يمنع الهداية عن المفتريين: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

وقال تعالى عن كتابه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، فعدم إيمانهم بالحق الواضح وعدم إذعانهم له عاد على القلوب بالعمى والإغلاق عن فهم الحق وسماعه.

وعلاج هذا المرض: أن يميل الإنسان بقلبه إلى الحق ويرغب فيه، ويصنع الرغبة والميل بتذكره أن لا يجوز تبديل الحقائق والتزوير فيها، فيصدق مع نفسه في طلب الحق، ويصدق به إذا عرفه، وإذا وجد في نفسه ميلاً إلى تكذيب الحق لأي سبب كان؛ فعليه أن يحمل نفسه ويجبرها على الاعتراف بالحق، ورفض الباطل مهما كان ثمن ذلك.

- ومن أشد الكذب والافتراء: تحريف كلام الله، ومن يفعل ذلك يكون عالماً بالحق وهو يتقصد أن يبدله ويزور على الآخرين، وينسب إلى الله باطلاً ليس من كلامه، وهؤلاء لا يطمع الإنسان بهدايتهم؛ إلا أن يتوبوا من تحريفهم، وقد وقع في ذلك كثير من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

وقال تعالى مبيناً أنه لا يمكن أن يهتدوا وهم يقومون بهذا التحريف:
﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْكِتَابِ وَقَدْ كَانَفَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ
بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال: ﴿ يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ
الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ
الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ
مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ
فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ
فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٤١].

وبين الله تعالى أنهم إنما تجرؤوا على التحريف بعدما نسوا أوامر الله وذكره
ووقعوا في آثام ومعاصي ونقض للعهود وأصابتهم قسوة قلبية؛ فأوصلهم ذلك إلى أمر
أخطر هو التحريف لكلام الله عن مواضعه، فقال سبحانه: ﴿ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مَيْتَقَهُمْ
لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا
دُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ^(١) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣].

وكل من يقرأ ما حرفوه ويرضى به، وهو يرى فيه ما لا يمكن أن يكون من عند
الله، كالشرك بالله، ونسبة الفقر إلى الله، ونسبة الفواحش إلى الأنبياء؛ فهو مقرر
للتحريف، فيكون شريكاً للمحرفين، ومجرماً مثلهم، وينال مثل عقابهم، ولا يمكن أن
يهتدي إلى الحق إلا أن يتبرأ من التحريف والكذب على الله.

والقرآن الكريم الذي أنزل على الرسول محمد بن عبد الله ﷺ لا يمكن تحريفه
ولا تبديل كلامه، لأن الله أراد ذلك وكتبه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

(١) قال القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ج ٦، ص ١١٦: ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ﴾: في معناه
قولان: فاعف عنهم واصفح ما دام بينك وبينهم عهد، وهم أهل ذمة، والقول الآخر: أنه منسوخ
بآية السيف، وقيل بقوله عز وجل: ﴿ وَلَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ [الأنفال: ٥٨].

لَحْفُظُونَ ﴿ [الحجر: ٩]، ولكن يمكن أن يقع الإنسان في جريمة التحريف فيه بتأويل كلامه وعقائده على غير وجهه، ويقول الباطل ونسبته إلى الله، والاستدلال عليه استدلالاً باطلاً، لا على سبيل الاجتهاد المقبول، بل على سبيل التحريف وقصد التضليل للخلق، أو النفاق لأهل الكفر، وقد حذر النبي ﷺ من ذلك إذ قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا»^(١)، والواجب على كل من يحرص على تزكية نفسه في زماننا هذا مع كثرة المنافقين والمضلين والجاهلين أن يتحرى عمن يأخذ دينه وعلمه، وأن يحذر من أن يقول بغير علم وخاصة في العقائد والمبادئ والقيم، أو يفتي بغير علم فيستحل الحرام ويحرم الحلال، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وقد حذر النبي ﷺ من التحريف في دين الله من خلال الكذب عليه فقال: «من تعمَّد علي كذباً فليتبوأ مقعده من النار»^(٢).

- رفض حقيقة ثابتة واحدة سبب في ضلال العقل:

إن الهداية تحتاج إلى رغبة في معرفة الحق، وعزم على قبوله حين معرفته، فإذا تردد الإنسان في الواضحات، ولم يؤمن بها رغم وضوحها وثبوتها، فقد صادم عقله وتخلَّى عنه، وأعلن عدم الرغبة في الحق، فلا يهتدي بعد ذلك إلى خير ولا إلى حق، فهو كاذب حينما يدعي أنه يريد الحق في شيء وقد تخلَّى عنه فيما بان له واتضح، لذلك كتب الله تعالى أن لا يهدي من رفض الحق بعدما ظهر له، قال تعالى: ﴿وَنَقَلِبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال

(١) أخرجه البخاري رقم ١٠٠ [بغا] ومسلم رقم ٢٦٧٣ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٠٨ ومسلم رقم ٢ عن أنس، وفي رواية عن المغيرة قال ﷺ في أوله: «إن

كذباً عليّ ليس ككذب على أحد» أخرجه البخاري رقم ١٢٢٩ ومسلم رقم ٤.

تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَفْزِدُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥].

وقد بين الله تعالى أن رفض الحق والتكذيب بالآيات الواضحة يجعل الإنسان يفقد فائدة العقل وفائدة السمع والبصر التي تستعمل للوصول إلى الحقائق، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَبَصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الاحقاف: ٢٦].

- الجهل واتباع الوهم وانحراف التفكير عن المنطق السليم:

ومن الجهل واتباع الوهم أن يسير في طريق غير منطقي لا يوصل إلى النتيجة التي يراد الوصول إليها والتعرف عليها.

مثال ذلك: ما فعله فرعون للتعرف على الله، فلم يطلب الدليل العلمي المنطقي الذي يدل على الغيب ويدل على وجود الله وصفاته من خلال فعله وآثار صفاته، وإنما طلب دليلاً مادياً متوهماً أنه سبيل المعرفة لله، وهو أن يبني بناءً عالياً، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِيَّ صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَتَسْبَبُ السَّمْعَوَاتِ فَأُطْلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي بَبَابٍ ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

ومثال ذلك أيضاً: من أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨]، بين الله تعالى في هذه الآية أن طريق الإيمان واليقين بالله هو الآيات والعلامات الدالة على وجوده ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

يُوقِنُونَ ﴿١﴾، وليس ما طلبه الكافرون من كلام الله لهم وسماعهم له؛ فمن الجهل والوهم أن يظن الإنسان أن هذا طريق معرفة الله.

وقلوب الكافرين تتشابه في حملها لهذا المرض، ففي كل عصر ترى من يطلب مثل هذا الأمور التي لا تصلح دليلاً على وجود الله، ويترك الأدلة الحقيقية، يطلبون دليل الحس فيما هو غيب، أو ينكرون الغيب ويدعون أنه لا يوجد إلا المادة، مما هو محسوس.

وعلاج هذا المرض: أن يرغب الإنسان بالعلم، ويعرف أهميته، وأن الخير لا يكون بالجهل، فيدفعه ذلك إلى طلب معرفة الحقائق، وأن يهتم بأن يكون منطقياً في تفكيره، وأن يسلك السبل الصحيحة لمعرفة الحقائق، فما كان يتوقف على التفكير سلك فيه طريق التفكير والعقل، وما كان يكفي فيه الخبر الصادق؛ اكتفى به وصدق بالخبر إذا كان صادقاً لا شك فيه.

وينبغي الالتفات إلى سبب الجهل، فإن كان تعلقاً بالدنيا فعلاجه في معرفة هوان الدنيا، وإن كان سبب الجهل مسaire البيئة والأعراف وتقليد الأهل والآباء والعشيرة؛ فعلاجه في الانتباه إلى أن الحق أحق أن يتبع، وهكذا في كل ما يكون سبباً في الجهل.

- ترك العقل لقول الآخرين:

من العوامل المضللة للعقل أن يعظم الإنسان الآخرين، آباءاً أو غيرهم، من غير أن يعرف أنهم على الحق أم على الباطل، ويعظم أقوالهم واعتقاداتهم، ويترك استعمال عقله وفكره.

ولو استعمل عقله أو استمع إلى الوحي لعلم فساد اعتقادهم وبُعدهم عن العلم والحقيقة.

وهذا التقليد للآخرين بغير هدى ولا علم يفقد الإنسان الهداية، لذلك فقد ذمّه الله تعالى فقال: ﴿وَإِذْ أَيْدِيهِمْ أَتْبَعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَلَوُا بِلَ نَسِجٍ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ أُولَئِكَ كَانُوا

ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿البقرة: ١٧٠﴾، وقال سبحانه: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ * وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ * قُلْ أُولَٰئِكَ حُتُّوا بَاهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿الزخرف: ٢٢-٢٤﴾.

- تلقي إلقاءات الشياطين ووساوسهم وتشكيكاتهم التي تدعو إلى الكفر:

الشیطان عدو، وظيفته الوسوسة بالشر والباطل، مقصده أن يدخلنا النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿فاطر: ٦﴾، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿النساء: ٦٠﴾.

وواجب الإنسان أن يحذر من الخواطر التي يلقيها الشيطان ليشوش على الحقائق، ويشغلنا عنها وينسينا إياها، ويثير الشبهات، ويزين الباطل، وكل ذلك حذرنا منه الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَٰيَطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿الأنعام: ١١٢﴾، وقال سبحانه: ﴿أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴿المجادلة: ١٩﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجِدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿الأنعام: ١٢١﴾، وقال عز وجل ذاكراً قول الهدهد: ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿النمل: ٢٤﴾.

والشیطان يستدرج الإنسان بأوهام لا حقَّ فيها، فالعاقل يحاكم كل وساوسه، ولا يتبعه في أي فكرة، ولا ينطق بمنطق الشيطان الأعوج، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْسِلَةِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿البقرة: ٢٠٨﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمِّنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿محمد: ٢٥﴾.

وإذا استحكم الشيطان من الإنسان؛ فقد صار للشيطان عليه سلطان، فعندئذ يصير الشيطان يصدر الأوامر التي يريد بالأفكار الكافرة والأفعال المنحرفة، يتبعها الإنسان وينفذها بلا تردد، قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مُنِيتَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْتَكَنَّ ءَاذَانُ الْأَنْعَامِ وَلَا مِرْتَهُمْ فَلْيَغَيِّرْ بَ خَلْقِ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ [النساء: ١١٧-١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

والذين ابتلوا بوساوس تشكيكية، تشككهم بحقائق الإيمان، وتشوش عليهم، فمعظم علاج ذلك في العلم بتلك الحقائق وأدلتها، فكلما شكك الشيطان بحقيقة واجهه المسلم بأدلتها وبرهانها فيخسأ الشيطان ويخنس ولو بعد حين، أما إذا لم يعرف الحق ولم يعرف دليله فلا يزال الشيطان يشوش عليه ويشككه حتى يغلبه ويبعده عن دينه.

- الغفلة عن استعمال العقل وعن طلب الحقائق:

كثير من الناس يعيش عمره ولم يفكر في أن هناك حقائق يجب أن يبحث عنها أو يفكر فيها، فهذا الغافل لا يفكر بأن يبحث عن الحق، ولا يستعمل عقله، غافل عن أهمية هذه الحقيقة أو تلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فالغفلة سبب في الضلال الذي يوصل إلى جهنم، كما بينت الآية، وقد وصفهم الله تعالى بالغفلة مبيناً أن حالهم من عدم الفقه والإبصار والسمع هو غفلتهم، والآية تدل على أن الإنسان لا يخرج من حالته التي هي دون الحيوان إلا أن يترك غفلته ويستيقظ، فكان أول الطريق السليم لسعادة الإنسان أن يطهر نفسه من غفلته باليقظة والانتباه إلى شأنه وما هو مطلوب منه.

وإذا كانت الأنعام لا تعقل الهداية وليست مكلفة بها، فإن الإنسان مكلف بطلب الهداية، وقد أعطاه الله ما يخرج به عن مشابهة الحيوان، فإذا شابه الحيوان على الرغم من أنه يتميز عنه بعقله وفهمه وإدراكاته؛ فإنه يكون عندئذ أدنى من الحيوان وأنزل رتبة عنه، لذلك قال سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

هذه هي الغفلة العقلية، وقد يكون الإنسان عارفاً بالحق لكنه يتغافل عنه ولا يذكره، فهذا غافل القلب^(١)، وغالباً ما تنشأ الغفلة بنوعيتها عن مسامرة البيئة التي نشأ فيها ومتابعتها وتقليدها من غير تفكير، ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]، كما تنشأ عن انشغال الإنسان بحاجاته الجسدية وغرائزه وشهواته ودنياه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [محمد: ١٢]، وقال: ﴿أَلَهَكُمْ أَلَهَاتُ﴾ [التكاثر: ١]، فبين أن سبب لهوهم وغفلتهم عن الحق هو طلبهم الاستكثار من الدنيا، ثم هددهم في الآيات التالية بأنه سيريم الجحيم عقاباً ﴿لَتَرْوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرْوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٦-٨].

ورضاهم بالدنيا وحبهم لها واكتفاؤهم بها واستمتاعهم بها؛ جعلهم غافلين لا يتطلعون إلى غيرها ولا يفكرون في حقيقة أهم منها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧]، يعيشون في غفلة عن حقيقة أمرهم، فلا يعرفون من هم، ولا ما وظيفتهم المطلوبة منهم في حياتهم، ولا ينتبهون إلى من أوجدتهم، ولا يلتفتون إلى مآلهم ونهاية حياتهم، فيعيشون حياتهم أشبه بحياة الحيوان، ويفكرون بمثل تفكيره، يظنون الحياة للمتعة والترفة والأكل والشرب واللهو.

ومن رحمته سبحانه أنه يُمهّل خلقه حتى يصلهم الإنذار والتنبيه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]، فإذا بقيت الغفلة رغم تنبيه العقل؛ تحمّل الإنسان مسؤولية

(١) وسيأتي بيان علاج غفلة القلب.

غفلته، فيصير مُستحقاً للعقاب والعذاب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

المطلب الثاني:

وجود فساد في القلب

قد يؤدي إلى الكفر وإلى عدم الانتفاع من الحقائق والعقائد^(١)

تمهيد:

إنه لا يكفي أن يعرف الإنسان الحق، ويتوصل بعقله إليه، فقد يصل العقل إلى الحقائق ولا يستفيد، ذلك أن قلب الإنسان إذا كان لا يريد الخير والحق، وإنما يريد شهواته وغرائزه ومصالحه القريبة ولذاته الفانية؛ فإن هذا القلب يكون منحرفاً عن الحق رافضاً للحقائق، أو متغافلاً عنها، أو غير مدعن لها، بل قد يدعي أنها ليست بالحقائق وأنها باطل، على الرغم من ظهورها، كل ذلك ينشأ عن انحراف القلب وهواه الباطل وزيفه، وقد نبه الله إلى ذلك بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فبين الله تعالى بقوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أن وجود العلم لم يمنع من الضلال، بسبب وجود الهوى.

وقال تعالى: ﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا بِالْكِتَابِ وَقَدْ كَانُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، فبين الله تعالى أنهم رغم تعقلهم للحق لم يتبعوه، بل حرفوه وكذبوا بما أدرکوا صوابه وأحقيته.

- وقد بين الله تعالى كل أسباب انحراف القلب وزيفه، وبين ما يوصل منها إلى الكفر، وهذا بيان أهم الأسباب التي تحول دون الانتفاع من الحق ودون الهداية، لانحراف في القلب يمنع من قبول الحقائق، أو يمنع من الانتفاع منها.

(١) هذا المبحث هو الصق بموضوعات القلب، ولكنه لما كان موضوعه ذا علاقة شديدة بموضوع العقل والتأثير على هدايته فقد رأيت أن أجعله هنا.

فالقلب إذا وجدت فيه هذه الأمراض منعت من متابعة العقل فيما أدرك من الحق، بل قد تحول دون إدراك العقل للحق، فيجب التطهر من هذه الأمراض القلبية التي يمكن أن تؤدي إلى الكفر وعدم الإيمان.

وإذا وصلت هذه الأمراض الإنسان إلى الكفر؛ فلا يبقى مع الكفر شيء من التزكية أبداً، لأن الكفر بالإيمان لا خير معه، ولا تزكية معه، وكل خير مع الكفر حابط وباطل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

أمراض القلوب الخطيرة التي تمنع الإيمان والهداية:

- الكبر: بترك الحق استكباراً على الله وعلى حكم الله:

إن الهداية والإيمان ومعرفة قيمته؛ لا تدخل قلب مستكبر، يريد أن يسلب حق الحاكمية من الله إلى نفسه، فهؤلاء لا يهديهم الله، بل يصرفهم عن آياته وهدايته، قال تعالى: ﴿سَاصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقد ضرب الله لنا مثلاً على ذلك إبليس الذي كان يعلم أن الله حق، وأنه لا ينبغي مخالفة أمره، لكنه استكبر على أمر الله مظهراً أنه مستكبر على خلقه، ولم يكن يخفى على إبليس حقيقة ربوبية الله فهو الذي قال لله بعد عصيانه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦] و﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، وهو يعلم أن ما امتناعه عن طاعة الله باطل، ويعلم أن أمر الله لا يجوز أن يخالف، لكن وجود الكبر في القلب غطى كل هذه الحقائق وجعل إبليس يسير طريق المخالفة لله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، فما الذي جعله يفسق ويخرج عن أمر الله؟ إنه مرض الكبر، قال

تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقر: ٣٤]، فبكبره كان كافراً، ولم ينفعه علمه ومعرفته بالحقائق.

ومن صور الكبر التي تمنع الهداية؛ أن يشترط الإنسان شروطاً لا تحقق له: قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢١-٢٢].

وهذا الكبر إجرام كما سماه الله، وهو يتضمن نوعاً من الظلم والتعدي في طلب ما لا يجوز للإنسان أن يطلبه أو يشترطه، إذ يتناسون ويتجاهلون أن وراء عالم الشهادة غيب، لا يرونه وإنما يعرفونه بآثاره، فلا يصح أن يطلبوا معرفته مادياً، وإنما يعرف بالعقل والعلم والاستدلال.

ومن صور الظلم والاعتداء على حق الله: أن يطلب الإنسان من غيره من الناس أن يطيعوه في غير طاعة الله، فإنه ظالم يعطي لنفسه حقاً هو لله، وهو بهذا مستكبر، يرى نفسه أكبر من غيره من الخلق، يريد أن يشرع لهم وهو مثلهم، فيعطي نفسه حقاً من حقوق الرب الإله، فيتأله بذلك على الخلق، ويستعبدهم، ويقيّد حريتهم بغير حق، وليس لأحد أن يشرع لهم وأن يقيدهم أو يلزمهم بشيء إلا مالکهم وخالقهم، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَكُوتُ أَشْرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

وعلاج هذا المرض: أن يعلم المستكبر أنه مهما رفع نفسه، فإنه لا يجاوز قدره، ولا يتجاوز حقيقة كونه عبداً، فإنما يغش نفسه، فعليه أن يستسلم لهذه الحقيقة، ويعترف بأن الله أكبر منه، وأن الحق الذي يأتي من عند الله ليس له أن يرفع عنه، ولا أن يتناول عليه، ولا أن يُعرض عنه، وأن يعلم أن المستكبر مستكبر في محل الهوان والذلة؛ في الأرض، قال تعالى عن فرعون: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ

الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِنَّا لَا يُرْجَعُونَ ﴿[القصص: ٣٩]﴾، وبينت الآية أن وهمهم في عدم الرجوع إلى الله ارتبط بالكبر، لذلك فالإيمان بالدار الآخرة والقناعة بالرجوع إلى الله وتذكُّر ذلك يزيل الكبر.

- الظلم والإجرام:

والظلم مجاوزة الحد بغير حق، ومنع صاحب الحق من حقه، فإذا جاوز الإنسان حده في الوقوف عند الحق والإذعان للحقائق العلمية والمعجزات الباهرة؛ إذا جاوز حده فقد رفض الهداية واعتدى، ويكون بذلك ممتنعاً عن إعطاء حق الله في أن يُعبد ويُطاع، فيكون ظالماً بذلك.

وقد ضرب الله مثلاً على ذلك بقوم موسى جاءتهم الآيات الكثيرة والأدلة على صدق موسى وتأييده من عند الله بالمعجزات، فرغم تحقق اليقين في عقولهم من صحة نبوته وما جاء به تركوا ذلك، بسبب رغبة القلوب في الظلم والعلو، قال تعالى: ﴿وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَةً مِنْ غَيْرِ مُسَوًّى فِي تِسْعٍ ؕ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ؕ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ؕ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْتَمِرٌ ﴿١٣﴾ وَحَدِّثُوا بِهِ ؕ وَاسْتَفْتَيْنَاهَا أَنفُسَهُمْ فَظَلَمُوا وَطَلَّوْا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿[النمل: ١٢-١٤]﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿[النساء: ١٦٨]﴾.

إن الهداية تحتاج إلى براءة من الظلم والإجرام، وطهارة من حب الإفساد والأذى والمعاصي، فهؤلاء لا يهتدون ولا يؤمنون، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْأَلُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿[الحجر: ١٢-١٣]﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ؕ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿[الحجر: ١٢-١٣]﴾.

وعلاج هذا المرض: أن يجعل قلبه وقافاً عند الحق، وأن يعلم أن تجاوزه للحد لا يغير من الحق شيئاً، لكن ظلمه يعود عليه بالشر، إذ يحرم نفسه من الحق وخيره وبركته، فهو الذي يخسر، وظلمه يؤدي به إلى الكبر لذلك قرن الله بينهما ﴿ظَلَمُوا وَطَلَّوْا﴾.

- اتباع الهوى، ومخالفة الشرع لما تهوى الأنفس:

إن أي مخالفة للحق فهو هوى وميل باطل، وأي ميل إلى الباطل فهو سبيل للضلالة، مانع للهداية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، فبين أنهم لم يستجيبوا للحق بسبب الهوى.

وإنما سميت مخالفة الحق هوى لأنه الإنسان إنما يخالف الحق لأجل شهوات وأهواء وميول في قلبه ونفسه، واتباع الهوى والشهوات يحرف الإنسان عن حال التزكية وقد يصل بالإنسان إلى الكفر، قال تعالى: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

ومتبع الهوى في قلبه يضل ولو كان عقله قد عرف الحق، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فمع وجود العلم حصل الضلال، بسبب وجود الهوى، الذي يسيطر على الإنسان حتى يصير إلهاً مطاعاً من دون الله.

وحينما يأتي الشرع بخلاف ما تهوى أنفسنا فواجبنا أن نطرح أهواءنا، لأن اختيار الله لنا هو الأصلح وهو الخير، ومصلحتنا في طاعة الله لا في أهوائنا، فمن قدم ما يهواه على أمر الله، ضل واختلت تركيته، بل ربما وصل إلى الكفر والإجرام والقتل وتكذيب الحق، كما كان اليهود مع رسلهم، كلما أرسل لهم رسول رفضوه وكفروا به، لهوى في نفوسهم وميل باطل في قلوبهم، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

وعلاج هذا المرض: أن يعلم الإنسان أن كل ما يحبه ويهواه غير ما أَرَادَهُ اللهُ له؛ فهو باطل ومخالف للحق يفوت عليه مصلحته الحقيقية ومنفعته وخيره، فيستسلم قلبه لربه، ويجعل ميله إلى مراد الله.

وإذا علم أن الخير والحق عند الله؛ فعليه أن يبحث عن الحق، ولا يشتغل بالباطل عنه، أو لا يتغافل عن طلبه، فيكون من الخاسرين.

وهذا العلم لا يأتي حتى يتوصل إلى إدراك حقيقة الدنيا وهوانها في جنب الآخرة.

- ومن الهوى: استحباب الباطل والضلال والانحراف:

وقد ضرب الله مثلاً على ذلك بشمود قوم صالح، دلهم الله على الحق والهدى، أو أعطاهم أسباب الهداية، لكنهم مالوا إلى إغفال الحقيقة وكأنهم لا يرونها، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَيعَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وأسوأ من اتباع هوى النفس: اتباع أهواء الآخرين، وهذا بيانه:

- اتباع من يريد الباطل:

قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]، والله يريد أن يتوب عليكم: يوفقكم لطريق التوبة والاستقامة والهداية، ويريد الذي يتبعون الشهوات: من الكفرة والفجرة والمفسدين، أن تميلوا ميلاً عظيماً: أي أن تميلوا وتنحرفوا عن القصد والعدل إلى الجور والظلم، وعن الحق إلى الباطل، وعن العفة إلى الفسق.

لقد جاءت الشرائع الربانية لتشريع للإنسان ما فيه خيره وطهارته وعفته، فما شرعه الله تعالى هو الخير لنا، وهو الطهارة، وأما أهل الشهوات فلا يريدون لنا الخير ولا الهداية ولا الاستقامة، وإنما يريدون لنا الفساد والفجور والانحراف، لذلك لا يجوز اتباعهم ولا صحبتهم بل يجب الحذر منهم والأخذ على أيديهم.

ومثل هذا المرض: المرض الآتي:

- الميل إلى العادات والموروثات وتقليد الآباء بغير حق:

إن رغبة الإنسان في نصرة قومه وتأييد آباءه، من غير أن يتأكد أنهم على الحق؛ قد تواقعه في الباطل والكفر أحياناً، فليس كل الآباء على حق، فالواجب أن يحذر الإنسان من أخذ أقوال الآخرين أيّاً كانوا من غير تثبُّت وحنة.

وقد ضرب الله مثلاً على ذلك بقوم إبراهيم أقام عليهم سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الحجة في عدم صحة عبادة الأصنام، فحينما فاجأهم بالحق انتبهوا إلى خطئهم، لكنهم بدلاً من أن يسلموا له، غلبوا ما تميل إليه قلوبهم من العادات وتقليد الآباء، ورفضوا الحق وكابروا لأجله بلا حجة، بل وأرادوا قمع من يواجههم بالحق ويدلهم عليه.

قال تعالى بعد أن ذكر أن إبراهيم كسر أصنامهم: ﴿قَالُوا أَأَتَتْكَ هَذِهِ إِلَهَاتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَشَلُّوهُمْ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٥]، فمن لا يملك أن يدافع عن نفسه كيف يكون إلهاً؟ ثم لما وجدهم رفضوا الحق أقام عليهم حجة أخرى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٨]، وبين الله تعالى في سورة الشعراء في قصة إبراهيم أن الذي منعهم من قبول الحق رغم وصوله إلى عقولهم؛ هو تقليدهم لآبائهم وقومهم، قال سبحانه: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤].

وضرب الله مثلاً آخر بما فعله كثير من رجالات قريش، حيث لم يخف عليهم أن النبي محمد ﷺ حق، لكن حجبته رغبتهم في متابعة الآباء تعظيماً لهم سواء كانوا على الحق أو الباطل، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ورفضوا الحق تعظيماً لكبرائهم ولأنفسهم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا

جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿الزخرف: ٣٠-٣١﴾.

وعلاج هذا المرض: أن يعلم الإنسان أن الآباء والآخرين يمكن أن يكون قد انحرفوا كما يمكن أن ننحرف، فليسوا خيراً منا في ذلك، فمن اتبع الحق فهو على خير، ويجوز متابعتة، ومن اتبع الباطل فهو على شر، ولا يجوز متابعتة، والحق أحق بأن يتبع، وقد نبه الله من يتبع آباءه في الحق والباطل، نبههم إلى أنه قد يكون آباؤهم لم يستعملوا عقولهم ولم يصلوا إلى الهداية، فكيف يتبعونهم؟ قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا^(١) عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا لَكُم مِثَالاً لَعَلَّكُمْ تَعْتَدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

ومناصرة العشيرة والآباء أو الحكام ومتابعتهم بغير تأكد من موافقتهم للحق ترجع في جانب منها إلى الكبر، فهو يميز عشيرته وقومه وآباءه ويجعلهم أكبر من غيرهم، وكل ذي عشيرة يفترض الحق فيها والباطل في غيرها، فكل يكبر قومه ويقدمهم بلا وجه منطقي للتقديم، والكل من تراب، والكل من أب واحد، وأسودهم وأبيضهم لا يتميز بهذا اللون، ولا بلغته ولا بموضع ولادته وحياته، لذلك أسقط الله كل كرامة إلا بوجه منطقي، وهو التقوى التي بها يتمايز الناس عند الله، وبها يتقدمون في الدنيا والآخرة، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ^(٢) وَتَعَاضَمَهَا بِالْآبَاءِ»^(٣).

والتقليد إذا وافقت به أهل الحق قد لا يكون مذموماً، من جهة أن المقلد يكون على الحق عندئذ، لكنه يكون مذموماً وناقص التزكية من جهة أن المقلد لم يتبع السبيل

(١) ألفينا عليه آباءنا: أي وجدناهم عليه، وألفيناهم يعملونه ويقولونه ويعتقدونه.

(٢) عيبة الجاهلية: أي كبرها.

(٣) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٣٢٧٠، ونحوه أحمد رقم ٨٧٢١ وأبو داود رقم ٥١١٦ وابن

حبان رقم ٣٨٢٨.

الصحيح لمعرفة الحق، وهو يستطيعه، ومن جهة أنه يُمكن تشكيكه بعقائده بسهولة، ويكون مجال وسوسة الشيطان عنده أكبر، بخلاف من كان اعتقاده عن فهم ودليل واقتناع.

- الحسد:

إذا رأى الإنسان نعمة على الآخرين؛ فلا ينبغي أن يدفعه ذلك إلى إيذائهم وتكذيب النعمة التي أعطاهم الله إياها، ولا ينبغي أن يدفعهم إلى تمنى زوالها والسعي في إلزائها وإفسادها، بل لك أن تطلب من الله مثل هذه النعمة، إن لم تعلم أن الله خص بها أحداً دون غيره، وعليك أن تقدّر هذه النعمة، لأنها من الله، ولك أن تتنفع منها من خلال صاحبها، إن كان ذلك ممكناً، وعليك أن تستفيد منها إن أوجب الله عليك طلب فوائدها بواسطة صاحبها الذي أنعم الله عليه.

وقد ضرب الله باليهود مثلاً على الحسد الموصل إلى الكفر، كانوا يعلمون أنه سيرسل نبي، ويعلمون صفاته، فلما جاء النبي محمداً ﷺ بالأوصاف التي يعلمونها؛ أنكروا ما يعلمون، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، وكل ذلك راجع إلى مرض في قلوبهم في استعلاؤهم على الأقوام الأخرى غير اليهود، فكلما أكرم الله غيرهم بشيء حسدوهم وأبغضوهم، وعملوا على إخراجهم عن الهداية كما أخرجوا أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَذَكَرَ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وعلاج هذا المرض: أن يعلموا أن الله تعالى هو الأعلم والأحكم فيما يعطي ويمنع، وفيمن يختار لرسالته ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]،

فيستسلموا لاختيار الله لأنه الأحسن، وهم حينما ينكرون على الأنبياء لأنهم ليسوا منهم أو ليسوا على أهوائهم؛ فإنما يجرمون أنفسهم من الحق ومعرفة الحق ومتابعتهم، وهم بإنكارهم على الأنبياء وبحسددهم لهم يعترضون على الله الذي أعطاهم تلك النبوة، فبدلاً من أن يشكروا خالقهم على نعمته، يتهمون الله بسوء الاختيار، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، فلم يقل الله تعالى: على ما عندهم، بل قال: ﴿عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ تنبيهاً للحاسد أنه إنما يعترض على فعل الله وقضائه.

- الغرور بالصالح والرغبة في إظهار المزية على الخلق:

والغرور نوع من هوى النفس الإنسانية، فإذا اغتر الإنسان بنفسه، ونسي أن الخير الذي عنده من الله، ورأى نفسه خيراً من غيره، ورأى لنفسه مزية على غيره، ورأى نفسه أكبر من غيره؛ قد يدفعه ذلك إلى القول بالباطل، ليلفت الناس إليه، فقد يقول الكفر، وقد يخالف أهل الحق، وقد يتدع، ليُرى متميزاً على الناس، عنده ما ليس عندهم.

وقد ضرب الله مثلاً على ذلك بالسامري كان على درجة من العلم والصالح، فلما مال قلبه إلى أن يرى لنفسه مزية وكرامة أو جاهاً في الدنيا؛ تناسى ما يعرفه من الحقائق وتركها جانباً، وقبّل لنفسه وقومه أن يتخذ إلهاً من دون الله، فيكون من الكافرين، قال تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلَاءُ أَوْ زَارْنَا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْ فَتَنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٧-٨٨].

وعلاج هذا المرض: أن يعلم الإنسان أن المزية لا تُنال بالباطل، فلئن ظهرت له المزية بالباطل حيناً فسوف تنقلب عليه وبالاً وخسراناً، فيصير مذموماً لا مدوحاً، ثم إن صاحب الفضل في كل خير هو الله، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، فعلينا أن نشكر الله ونعترف بفضلته فنكبر الله، لا أن نطلب

كبرياء أنفسنا ولا أن نشبع غرورها، فإذا اغترت النفس بما هو من فضل الله فقد نسبت لنفسها ما ليس لها فتكون كاذبة، فعلى القلب أن يبقى على الصدق والتواضع لله صاحب الفضل، ومن مدح نفسه ولم ينسب الفضل إلى الله فهو مهدد بعذاب الله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازٍ مِنَ الْعَذَابِ لَّهُمْ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

- الإعراض عن الله وذكره وحكمه:

وهو من أشد أنواع التكذيب، بأن يعرف الحق ومع ذلك يدير ظهره وقلبه عنه، ولا يريد أن يفهم الحق، قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ لَعَلَّكَ تَفْهَمُ﴾ [الشعراء: ٢-٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَهِيْطَ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا نِدِّيَّكُمْ مِّنْ هُدًى فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدًى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤] فالمفهوم المخالف للعبارة الأولى يدل على أن من أعرض يضل ويشقى.

وقد وصف الله سبحانه المعرضين بالكفر، فقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقد ضرب الله مثلاً على ذلك بقوم سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ. بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

وعلاج هذا المرض: أن يميل بقلبه إلى الله وإلى حكمه، وهذا الميل والحب يأتي نتيجة القناعة بأن الله هو المحسن المتفضل على عباده، وأنه المتصف بالصفات الحسنى،

وأنَّ حكمه هو الحق، وأنَّ يقتنع بأنَّ ما يميل إليه ويُعرض بسببه عن الله لا ينفعه بذاته، ولا يملك له نفعاً ولا ضرراً، فهو محتاج إلى الله حتى في الأسباب التي يُعرض بها عن الله، فمهما أعرض الإنسان عن الله فهو محتاج إليه في كل شيء، وكيف يعرض عمن يقدر على إنزال العقاب عليه، وقطع الإمداد عنه؟ وبقدر ما يتذكر الإنسان هذه الحقائق يميل قلبه إلى الله أكثر، فلا يعرض عنه ولا عن هداه الأحكم، ولا عن حكمه الأنفع.

وقد يكون سبب الإعراض هو الغفلة عن عظمة الله ونعمه وفضله، أو هو الكبر، أو هو الفرار من التكليف ليبرر لنفسه اتباع الشهوات والهوى، فيكون علاج الإعراض عندئذ بعلاج أسبابه.

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ * قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١-٤٢]، فذكرهم بنعمته عليهم واحتياجهم إليه عسى أن يخرجوا من إعراضهم، وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧-٦٨]، فذكرهم بعظمة القرآن، والشيء العظيم لا ينبغي أن يعرض عنه الإنسان، فكيف إذا كان هذا العظيم هو الله أو هو من عند الله، فلا ينبغي أن يستكبروا عليه ويعرضوا عنه.

ومن أسوأ الإعراض أن يصل الإنسان المعرض إلى حدِّ كُره الله ﷻ ورسوله ﷺ:

- بغض الله ورسوله ﷻ والمؤمنين أو كره شيء من دينه:

ومن كره الله وكره إرضاءه، ولم يبال بغضب الله فقد فقد كل التزكية ولا قيمة لأعماله، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٩] وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد:

ومن أحب الكافرين وأبغض المؤمنين فقد خرج عن الإيمان، فلا يهديه الله، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، والولاية والنصرة إنما تنشأ عن الحب القلبي، فلا بد من معالجة أسباب ذلك الحب وردها إلى الحق.

وطبيعي أن ينشأ عن البغض والكره لله ولرسوله ولدينه؛ استخفاف وسخرية واستهزاء، وهي من صور الكفر، أعادنا الله منها، قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُتَفَقُّوْنَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا بِإِذِ اللَّهِ مُحْجَرُونَ﴾ * وَلَٰكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا فَعْدْكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن تَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ تُعَذِّبْ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي مَرْمَرٍ﴾ [التوبة: ٦٤-٦٦].

فعلى المسلم أن يخشى من كل صور السخرية والهزاء من الرب والرسول والدين، ولو على سبيل المزاح فإنه لا يجوز.

علاج ذلك: إذا كان سبب الكره: الجهل بالله ورسوله ﷺ وبالمؤمنين والجهل بأنهم على حق؛ فالواجب التعرف على الحق وأهله، ثم يجب التأدب مع الحق وأهله، وإن كان سبب الكره رغبتهم في الظلم والشهوة؛ فالواجب معرفة مغبة الظلم والشهوة وأنها تكون أعظم جرماً إذا أدت إلى الكفر بالحق وأهله، وعلى صاحب ذلك أن يجاهد نفسه في رفض الظلم والشهوة، وإذا لم يترك الظلم والشهوة فعلى الأقل أن يعترف بينه وبين نفسه أنه على باطل، فلا يغش نفسه ولا يزور الحقائق لأجل ميله الباطل، كما عليه أن يجاهد نفسه فيمنعها من السخرية أو من كلمات تؤيد ميله الباطل وكرهه.

- الغفلة عن تذکر الحق:

قد يكون الإنسان عارفاً بالحق قادراً على إدراكه، يسمع الحق فلا يقيم له وزناً ولا يعرف له قدراً، يتناساه، ولا يُذَكَّر نفسه به، ولا يحب ذكره وسماعه، وإذا تذكره

أعرض عنه، وتشاغل عنه، فذلك غافل القلب، قال تعالى: ﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ * مَا يَأْنِيهِمْ مِّنْ ذِكْرِ مِّن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ * لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ ﴿ [الأنبياء: ١-٣]، فكانوا كالذين لم يعرفوا الحق بسبب ما شغلوا أنفسهم به من اللهو والباطل والهوى والشهوات.

علاج الغفلة القلبية:

الخروج من الغفلة التي توصل إلى الكفر يكون بالتذكر للحقائق الكبرى التي يجب أن تعتقد، لذلك ينبهنا الله كثيراً إلى التذكر بقوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٢٤]، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣]، ﴿ فَإِنَّمَا يَتَذَكَّرُ قَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِنَا لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان: ٥٨]، والآيات من مثل ذلك كثير، وهي تشمل التذكير العقلي والقلبي، لتعرف بالحقائق من لم يعرفها ولم يفكر بها، ولتذكر قلب من يعرفها وينساها.

والإنسان الذي لا يستعمل قلبه في التذكر فكأنه من غير قلب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، وهل تجد أحداً لا يستعمل يده أو عينه أو أذنه؟ ولو لم يستعملها لربما فاته بعض الفوائد، لكن الذي لا يستعمل قلبه تفوته كل الفوائد فهو أعجب من ذلك، فإن القلب أهم ما في الإنسان ففيه عقله وعواطفه وتوجهاته، وبه نجاته أو هلاكه.

والقرآن والسنة ذكرا من أعضاء الإنسان مرات قليلة، بينما ذكرا القلب مئات المرات، تنبيهاً إلى أهميته.

والتذكر لا يمكن أن يكون بلا إنابة ورجوع إلى الحق، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣]، وقال تعالى بعد أن ذكر بعض الآيات الدالة عليه في الكون: ﴿ تَبَصَّرْهُ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٨]، وقد أنزل الله القرآن ليزكركنا ويخرجنا من غفلتنا فمن قرأه متدبراً

متفكراً متنبهاً بقلبه تذكر، قال تعالى: ﴿كَتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]، ولا يمكن أن يتذكر القلب ويخرج من غفلته حتى يخرج العقل من غفلته لذلك كانت الذكرى مختصة بأهل الإيمان ومن قصد الإيمان بالحق، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

ومن أهم أسباب الغفلة حب الدنيا أكثر من الآخرة، والانشغال بها عن الحق:
- استحباب الدنيا:

وحب الدنيا إذا تمكن من القلب يمكن أن يصل إلى حدٍّ يُعْرِضُ بسببه الإنسان عن الله وعن الآخرة، فيصل إلى الكفر الإنكار والإعراض من شدة تعلقه بالدنيا وشهواتها من مال وجاه ولذات، فلا يطلب هداية ولا يهتدي، ولا يلتفت إلى تذكير ولا يفكر، قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٨]، ومحل الاستحباب هو القلب، فكانوا كافرين وغافلين بسبب تقديم الدنيا على الآخرة وحبها أكثر من الآخرة.

وعلاج ذلك: تذكر قيمة الدنيا وما فيها من شهوات والتفكير في حقيقتها، والانتباه إلى أنها إلى فناء وانتهاء، وأنها محل عمل واختبار وابتلاء، توصل إلى محل الجزاء والحساب والبقاء.

- قبول وساوس الشيطان والانخداع بغروره وأمانيه الباطلة:

إن من وظيفة الشيطان أن يخدع الإنسان ويغرّه ويُزِين له، فإذا فشل في إقناع الإنسان بالباطل أو التشويش عليه؛ فإنه لا ييأس من أن يزِين له الباطل ويجمِّله له،

ويوسوس للإنسان بالتسويق وتأخير التوبة، ويغريه بالأمان الكاذبة، وينسيه الحق ويشغله عنه بوساوسه، ويخوفه من الفقر لينشغل بالدنيا عن الآخرة.

كل ذلك يؤثر به على قلب الإنسان فيبعده عن الحق، ويضله ويصرفه عن خيره، والشيطان من خلال هذه الأمور يستطيع أن يوصل الإنسان إما إلى الكفر، وإما إلى المعصية والفسق.

وقد أخبرنا الله عن ذلك كله في كثير من الآيات، تحذيراً من خطر الشيطان ووساوسه في القلب، وهذه بعض الآيات في ذلك:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفُرُودُ﴾ [فاطر: ٥]، والغرور الخادع هو الشيطان.

وقال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُغْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].
وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ بَيْنِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].
وقال تعالى: ﴿أَسْتَحْذَرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْزِزْ مَنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بَصُوتَكَ وَاجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِيَلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].
وقال تعالى: ﴿فَازِلْهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرِجْهُمَا وَمَا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ووساوس الشيطان محلها القلب الذي في الصدر، قال تعالى: ﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥]، وعن صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً فحدثته، ثم قمت لأنقلب^(١)، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمرَّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعَا، فقال النبي ﷺ: «على رسلكما إنها صفية بنت حيي» فقالا: سبحان الله يا رسول الله^(٢)، قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّاً» أو قال: «شيئاً»^(٣)، فما يقذفه الشيطان في القلب قد يجد تصديقاً فيؤثر في نفس الإنسان، ويثير عنده الشر والشك، وإذا حصل الشك في رسول الله ﷺ فقد كفر الإنسان؛ لذلك حرص النبي ﷺ على أن يخبرهما بمن معه حتى لا يقعَا في الكفر نتيجة وسوسة الشيطان.

وعلاج ذلك:

١. أن يعلم الإنسان أن الشيطان عدو مبين، يتربص به الشر والسوء والإضلال، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، والعدو لا ينصح أعداءه، فوجب الحذر من كل خاطر يأتي من الشيطان، والحذر من كل خاطر يردُّ في النفس يُحتمل أن يكون من الشيطان.

٢. قد تأتي وساوس الشيطان إلى الإنسان، ويندفع إلى العمل وفقها، من غير أن ينتبه إلى أنها وردت من الشيطان، فوجب على المسلم أن ينتبه إلى خواطره، ويميز الخير والشر منها وفق علم الشريعة، فيُقرُّ الخير الذي حكم به الشرع الحنيف بقلبه، ويحاول أن يسعى فيه عملاً، ويردُّ الشر الذي أنكره الشرع بقلبه ويرفضه وينكره، ويمتنع عن العمل به، كما قال النبي ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب، عوداً عوداً كالخصير، فأَيُّ

(١) أي لأرجع إلى بيتي.

(٢) أي: ما تشكُّ فيك يا رسول الله، فلمَ تحرص على أن نخبرنا بهذا.

(٣) أخرجه البخاري ٣١٠٧ ومسلم رقم ٢١٧٥، ولفظ البخاري: «سوءاً» بدل «شرّاً».

قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء»^(١).

٣. وكلما شعر المسلم بوسوسة من الشيطان؛ استعاذ بالله منه، ولجأ إلى الله ليرُدَّ عنه كيد الشيطان، قال تعالى: ﴿وَمَا يَزْعَمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

٤. أكثر مداخل الشيطان إلى النفس إنما تدخل من شهوات النفس، فما كان للنفس فيه رغبة وشهوة؛ استطاع الشيطان أن يوسوس فيه ويزين، وأما ما كانت النفس تزهد فيه؛ فمهما وسوس الشيطان فيه فإن الإنسان لا يبالى بهذا الوسواس، ويستطيع أن يرده بسرعة وينصرف عنه، لذلك وجب الحذر من شهوات النفس، ووجب الزهد في ما أمر الله بالزهد فيه، والزهد إنما يأتي نتيجة معرفة هوان الدنيا وما فيها، ونتيجة معرفة أن هذه الشهوات تفسد مصالح الإنسان في الآخرة والجنة، فمهما كانت الشهوات في ظنه مفيدة ولذيذة؛ فهي خسارة في الآخرة وعذاب وهوان.

ومن تجرد عن أهوائه، وكان عبداً لله حقاً؛ فإن الشيطان لا يستطيع أن ينفذ إليه ولا يتسلط عليه ولا يغويه ولا يأمره، لأنه لم يبق فيه شهوات تغريه وتغلبه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

٥. إذا جاء خاطر يُسوِّف الخير والتوبة، فعلى المسلم أن يرفضه، وعليه أن يسارع في الخير والتوبة، ويعلم أن تأجيله إنما هو دعوة من عدوه، فلا يُطِعه.

فالشيطان يزين لك اليوم وغداً يتبرأ منك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي

وَلَوْ مَوَّأَ أَنْفُسَكُمْ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٢].

٦. ما دام من أعمال الشيطان وأهدافه أن يدخل النسيان علينا، فعلينا أن نكون ذاكرين لله، ذاكرين لأحكام الله، فلا ننتظر أن يدخل الشيطان الخواطر المنسية على قلوبنا، بل نحرص ابتداءً على أن نكون ذاكرين متذكرين، نشغل قلوبنا وألستنا بذكر الله، ونحرص على الحضور والمراقبة، ونتكلف ذلك بحسب وسعنا، حتى لا ندع حلاً للشيطان، ولا وقتاً يجد فيه فراغاً فيدخله، وبذلك يكون الذكر سبباً في الحفظ من الشيطان، كما أخبر النبي ﷺ، في الحديث الذي يخبر فيه عن خمسة أوامر أمر الله بها يحبب عليه الصلاة والسلام أن يأمر بها بني إسرائيل فكان منها: «وَأْمُرْكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ، فَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سَرَاعاً حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ»^(١).

٧. إذا كان من واجب المسلم أن يحذر من المعاصي والذنوب، لأنها مخالفةٌ لأمر الله، وخوفاً من عقابه عليه، فأيضاً يجب على المسلم أن يحذر من المعاصي لأنها تكون سبباً في تسلط الشيطان على الإنسان واستدراجه إلى مزيد من المعاصي والبعد عن الله، قال تعالى: وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَسْتَأْذِنُكُمْ الشَّيْطَانَ بَعْضُ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]، فمن أراد أن يكون محفوظاً من الشيطان فلا بد أن يكون بعيداً عن المعاصي.

٨. كثير من تزيين الشيطان وخداعه يدخل فيه إلى الإنسان من الجهل، فمن عرف حقائق الأمور وعرف أحكام الله؛ لم يكن من السهل على الشيطان أن يزين له وأن يخدعه، فاحرص على طلب العلم الذي أوجب الله علمه.

(١) حديث صحيح، رواه الترمذي في جامعه رقم ٢٨٦٣ وقال: حسن صحيح، ورواه أحمد في المسند ١٣٠/٤ وابن خزيمة في صحيحه رقم ١٨٩٥ والحاكم في المستدرک رقم ١٥٣٤ وقال: صحيح على شرط الشيخين.

المطلب الثالث:

من أعمال الجوارح التي قد تؤدي إلى الكفر وعدم الوصول إلى الهداية

إن أعمال الجوارح من المعاصي والمنكرات قد تؤدي إلى عدم القدرة على الوصول إلى الهداية، من خلال تأثيرها على القلب، كما قال الله تعالى في الكافرين الفجار أهل الجحيم^(١): ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، فبين أن أعمالهم وكسبهم هي التي كانت سبباً في وجود الران والغطاء على قلوبهم، وقوله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾ مع قبلها من الآيات تدل على أن الذي استوجب لهم رتبة الكفر ودخول النار هو هذا الذي أصاب القلب، والذي أصاب القلب إنما أصابه بسبب أعماله وكسبه واعتدائه وتكذيبه.

والأصل في معاصي الجوارح أنها من الفسق، لكن بعضها قد يصل بالإنسان إلى حد الكفر ويؤدي إليه، فيعاقب العاصي بالحرمان من الهداية، أو يطرد من الإيمان إلى الكفر، كما قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، فهدد الله المخالفين العاصين باحتمال إصابتهم بفتنة، والفتنة تأتي في القرآن أحياناً بمعنى الكفر والفتنة عن الدين.

وهذه نماذج مما أخبر الله ﷻ ورسوله ﷺ عنه من ذلك:

- قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ * الَّذِينَ يَتَقَضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧] بين سبحانه أن سبب إضلالهم وخسرانهم راجع إلى أعمال ومعاصي جسدية.

(١) فالآيات جاءت في سياق الكلام عنهم: ﴿كَلَّا إِنْ كُنَّ الْفُجَارُ لَفِي سَيِّئٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَصِفُونَ﴾ * كَذَّبَ مَرْثُومٌ * وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ * الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا نُنْزِلُ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ [المطففين: ٧-١٧].

- وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، فرتب الله احتمال أن تحبط الأعمال على هذا العمل، وهو أمر مرتبط بأمر قلبي وهو التكبر على النبي ﷺ، فإن وجد هذا مع ذاك حصل به الكفر.

- وقال تعالى في شرب الخمر والمسكرات والمخدرات: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩١]، فالله تعالى لم يقبل لنا شيئاً يذهب عقولنا ويغيبها، إذ بقاؤها سبب في بقاء الهداية، ومن رضي بزوالها فقد رضي بالباطل والانحراف عن الحق، ويمكن بذلك أن يصد عن ذكر الله وفرائضه، وشرب هذه المسكرات من أعمال الجوارح لكنه قد يؤدي إلى الكفر من خلال الصد عن الله وعن ذكره وحكمه.

- وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٨٠]، فرتب الله تعالى لعنه وسخطه وخلود النار على أعمال بعضها قلبية وبعضها من معاصي الجوارح، إشعاراً بمشاركتها وأثرها في النتيجة.

- وقال رسول الله ﷺ: «يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»^(١)، فأخذ شيء من المال، وهو من أعمال الجوارح سبب وقوعهم في الكفر، وهو مرتبط بأمر قلبي، وهو رغبتهم بالمال والدنيا وحرصهم عليها وتقديمها على الآخرة.

(١) أخرجه مسلم رقم ١١٨.

خاتمة البحث:

- مما مر في هذا البحث يتبين لك أن الإنسان قد يفوت الهداية على نفسه حينما لا يستعمل عقله، أو حينما يرضى بالجهل، أو حينما يقلد بغير علم ولا حق، أو حينما يتبع هواه.

- كما يتبين لك أن العقل وما يدركه من علم وما يعرفه من حقائق؛ لم يكن مانعاً وحده من الانحراف، إذا انحرفت وجهة القلب ومالت عن الحق، وأنت ترى كم هي خطورة ذلك عظيمة، فأمرض القلوب ليست مجرد معاصي أو تؤدي إلى معاصي، بل قد تكون سبباً في الكفر، كما رأينا، أعاذنا الله منه.

ومن خلال ما ذكرناه ومن خلال هذه الأمثلة يتبين لك أن القلب هو المَعْوَل عليه في الهداية، ولا يكفي العقل والعلم، وإن كان لا بد من استعمال العقل.

وسلامة القلب مع عدم وصول العقل إلى الحقائق لا ينتج عنه الهداية المطلوبة، فلا بد من وصول العقل إلى العلم الحق، مع سلامة القلب، حتى تحصل الهداية.

- وإذا وُجد العلم بالحقائق يمكن أن يتجه القلب اتجاهاً صحيحاً أو خاطئاً، ووجهته التي يقررها ويريدها ويشاؤها هي التي تحدد الصلاح والتزكية، أو الفساد والتدسية، وهذا ما أخبر الله تعالى به، وقرره لنا النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿لَإِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(١).

وهذا أيضاً ما بينه النبي ﷺ فيما رواه حذيفة عن النبي ﷺ قال حذيفة: «حدثنا»^(٢) أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من الكتاب ثم علموا من السنة»^(٣)،

(١) أخرجه البخاري رقم ٥٢ ومسلم رقم ١٥٩٩، ومعنى الحديث: إذا صلح دين القلب صلح دين الجسد.

(٢) أي النبي ﷺ.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري ٧٠٨٦ ونحوه مسلم ١٤٣ عن حذيفة ؓ.

فمعرفة الحقائق الثابتة والعلوم وما يدركه العقل - ولو كانت من الكتاب والسنة - لا بد أن يسبقها أو يرافقها - حتى ينتفع منها الإنسان - قلب سليم الوجهة طاهر الطوية طالب للحق راغب فيه، محب للخير ساعٍ إليه، وقد عبّر النبي ﷺ عن طهارة القلب وفطرته السليمة واستعداده للإيمان بالأمانة^(١).

- يا من تريد الهداية لا تكن كاذباً على الله ولا مستكبراً عليه ولا مستكبراً عن الأخذ بأحكامه، ولا تكن مفسداً مُضِلاً مجرماً ظالماً، ولا تكن متردداً ولا غافلاً ولا معرضاً عن الحق، ولا تكن عاصياً لربك، لا تدّع معرفة الحق وأنت تجهله فتفضح في الآخرة، وتكون قد خسرت الحق ونفعه وخيره، ابحث عن الحق، وكن محباً له، وابحث عن مصلحتك الحقيقية في الدنيا والآخرة، لا تحرم نفسك الخير، ولا تضيع فرصتك، ذلّ اليوم لله وللحق الذي أنزله إليك خير من أن تلازم الذل في الآخرة، قال تعالى: ﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤]، ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

(١) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم ج ٢، ص ١٦٨: «أما الحجّ ذرّ فهو بفتح الجيم وكسرها لغتان وبالذال المعجمة فيهما، وهو الأصل... وأما الأمانة فالظاهر أن المراد بها التكليف الذي كلف الله تعالى به عباده، والعهد الذي أخذه عليهم... وقال صاحب التحرير: الأمانة في الحديث هي الأمانة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وهي عين الإيمان، فإذا استمكنت الأمانة من قلب العبد قام حيثنذ بأداء التكليف، واغتنم ما يرد عليه منها، وجدّ في إقامتها، والله أعلم».

المبحث الثالث

أثر تزكية العقل واستقامة الفكر في تزكية النفس في سائر جوانبها

- تدل النصوص على أن طريق الهداية يبدأ من القلب، «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد، ألا وهي القلب»، وتدل نصوص أخرى على أن الجانب الذي إذا فاتت العناية به فاتت الهداية والخير والصلاح هو جانب العقل في القلب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]، فالذين لم يستعملوا عقولهم استحقوا الرجز وهو عدم الإيمان والهداية والصلاح، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

- إن لكل جانب من جوانب تزكية النفس أساساً عقلياً يرجع إليه، وينبني عليه، قال الخطابي رحمه الله: «والعقل أمير النفس، لأنها إذا أرادت أمراً راجعته»^(١)، فما يعقله العقل ويدركه من الحقائق والعلوم هو الأساس لسواه، ففي هذه الحقائق أساس يقتضي الإيمان بها، وفيها أساس للقلب، فتنبني توجهات القلب ورغباته على الحقائق التي اقتنع بها الإنسان، وفيها أساس للرجوع إلى حكم الله، وفيها أساس للعبادات،

(١) غريب الحديث ج ١ ص ١٢٢، للإمام حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، نشر جامعة أم القرى - مكة المكرمة، ١٤٠٢.

وفيها أساس للأخلاق، وفيها أساس للمعاملات، وفيها أساس للحضارة التي يجب أن تكون في البشرية، وغير ذلك^(١).

- إن الحقائق المعقولة هي التي يجب أن نؤمن بها ونصدق بها لأنها حق ثابت، والمعرفة بأنها حقائق يقتضي التصديق بها والإيمان بها، ومالم يكن الإيمان بها موجوداً فلا قيمة لمعرفة هذه الحقائق ولا قيمة للعلم بها.

وما لم يكن إيماناً فلا تزكية، وأعلى التزكية أن تطهر اعتقادك من الباطل، وكيف تزكو نفس وهي تُنكر الحقائق العظمى في الوجود: كحقيقة وجود الله وألوهيته وربوبيته وصفاته، أو حقيقة إرسال الرسل وإنزال الكتب، أو حقيقة اليوم الآخر.

لذلك كان أهم الأعمال عند الله هو الإيمان، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل أي العمل أفضل؟ فقال: «إيمان بالله ورسوله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»^(٢).

وإذا وجد الإيمان فعنه يمكن أن ينشأ ما سواه، من عبادة وأخلاق ومعاملة صحيحة، وإذا لم يوجد الإيمان فلا قيمة لما سواه^(٣)، فلو أن إنساناً صلى وصام وحسن أخلاقه، لكنه كان يؤمن بالباطل؛ ما فائدة عبادته وخلقه؟ لن يستفيد منها شيئاً، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكُكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا * وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُمْ مِّنْهُ مَنُورًا﴾ [الفرقان: ٢١-٢٣].

(١) وسنبين ذلك من خلال موضوعات الكتاب، ونبين كثيراً من ذلك في المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٢) رواه البخاري رقم ٢٦، ومسلم رقم ٨٣.

(٣) أي لا ينتفع الإنسان من وجود الأخلاق والمعاملات والعبادات مع الكفر، ويحبط أجره فيها، فلا تحصل له بها تزكية إيجابية، ومع ذلك فكونه يعملها قد تشغله عن غيرها من الباطل، فيكون أقل سوءاً، إذ قد يكف بذلك عن المجتمع شر اشتغاله بالباطل، فيكون تأثيره السلبي على المجتمع أقل من هذا الوجه، ويكون شره أدنى ممن يتعامل معاملات باطلة، ويتخلق بأخلاق فاسدة، فيؤدي بها المجتمع أو يفسده.

وقد بين الله تعالى في آيات كثيرة أن الإيمان إذا لم يكن موجوداً فلا قيمة لأي عمل بعد ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِنَايَتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ - فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

إذن أول ما نزكي به أنفسنا وننتبه إليه هو شأن الاعتقاد^(١) والإيمان بالحقائق المعقولة، حتى نكون مقرين لله بالربوبية والألوهية وسائر صفاته التي تليق بكماله وجلاله، ولذلك كانت الخطوة الأولى في تزكية النفس هي معرفة العقائد الحقة، ومعرفة أدلتها، والإيمان بها.

وبناءً على ما سبق فإن أهل أي دين أو ملة مهما وجد عندهم من الأخلاق والمعاملات الحسنة وأوصاف التزكية؛ فإنها ما لم تكن مبنية على الاعتقاد الحق في الله فهي صورة تزكية، لكنها ليست حقيقة ولا قيمة لها عند الله، لذلك لا تُتصور التزكية مع دين غير دين الحق، فلا تزكية لكافر على أي ملة كان، مع وجود عقائد باطلة عندهم، ومع عدم خضوعهم وإذعانهم للإسلام الحق.

(١) يسمى العلم بتلك المعلومات التي يجب أن يعقلها الإنسان ويؤمن بها علم العقيدة، وإذا اعتقدت النفس تلك المعلومات الصحيحة، فذلك من تزكية النفس، من حيث أن النفس - في فكرها وعقلها - لم تتعلق بباطل وشر وفساد، وإنما تعلقت بحق وخير.

- وقد بين الله تعالى أن الإيمان هو الأساس في الهداية، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾^(١) [التغابن: ١١]، فالإيمان بالله أساس الهداية والصلاح والتزكية.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾^(٢) تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ أَنْهَارٌ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿[يونس: ٩].

- ربط القرآن بين العقيدة وبين أحكامه التي بها تزكية النفوس:

لقد قرن الله إقامة الأحكام المختلفة في العبادات والمعاملات والأخلاق بالإيمان، فنجد كثيراً من الأحكام يبدأ الأمر بها بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، فما لم يكن إيمان بالحقائق والعقائد التي تدرجها العقول فلا يمكن أن يتجاوب الإنسان مع أمر الله وحكمه، والتزكية إنما تتم - بعد الإيمان والاعتقاد السليم - بإقامة الأحكام على وجهها الذي شرعه الله، وهذه نماذج من ربط الأحكام بالإيمان:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾^(٣) [المائدة: ٦]، فوجه الأمر بالوضوء إلى المؤمنين، لأن غيرهم لا يقبل الأمر، لعدم وجود الإيمان.

(١) والاستدلال بهذه الجملة من الآية على الوجه الذي ذكرناه؛ استدلال بعموم اللفظ، أما تفسيرها بحسب سياقها وهو قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١] فهو كما روى الطبري في تفسيره ج ٢٨، ص ١٢٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ يعني يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه».

(٢) ذكر الطبري في تفسيره ج ١١، ص ٨٩ في تفسير هذه الجملة: «عن مجاهد في قول الله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، قال: يكون لهم نوراً يمشون به»، وذكر القرطبي في تفسيره ٨ / ٣١٢ من تفاسيرها: «أي يزيدهم هداية كقوله: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [حمد: ١٧]»، وقد ذكر المفسرون معاني أخرى منها: أن أعمالهم وإيمانهم يكون نوراً وهدياً لهم يوم القيامة إلى منازلهم وجنانهم.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٣]، فوصف أهل الإيمان بأنهم هم الذي يفعلون الأحكام من صلاة وإعراض عن لغو وزكاة وحفظ للفروج وغير ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَقَاتُ يَرَزِقْنَ أَنْفُسَهُنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فما لم يكن عند الإنسان إيمان بالحقائق الكبرى كالإيمان بوجود الله وحسابه في الآخرة؛ لا يمكن أن يوجد التزام تام بمثل هذا الحكم.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] فوجه الخطاب إلى أهل الإيمان أن يكونوا متخلقين بالتحمل والصبر من خلال التصبر وعبادة الصلاة.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، فوجه الخطاب بترك الربا إلى المؤمنين، ثم ختم الآية بما يدل على أن من كان مؤمناً لا يمكن أن يتخلف عن هذا الأمر الرباني.

وقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢]، فمن آمن بالحق لا يمكن أن يتخلف عن حكم الله مهما كان مظهره شديداً، لأنه يعلم أن حكم حق من الحق سبحانه، فيه المصلحة والخير في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٣٨-٤٠]، فربط بين علمك بأن الملك لله وأنه قادر عليك وبين وجوب امتثالك لأمره في إقامة الحد على السارق المجرم المروع للآمين والمعتدي على مال غيره بغير حق.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]، فوجه الأمر لأهل الإيمان بالتفكير فيما أعدوا لآخرتهم، فلا تقوم هذه العبادة من غير مقدمات إيمانية يدرکها العقل.

وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١-٧]، فانظر كيف ربط في هذه السورة بين عبادات ومعاملات وأخلاق وبين الاعتقاد والإيمان باليوم الآخر، فالذي يكذب بيوم الدين يصدر عنه إهمال الصلاة وإيذاء اليتيم ومنع المسكين ومنع الماعون، والرياء بأن يقصد الناس في الأعمال.

وفيما يلي نبين ما هي نتائج الفكر الصحيح، وهي المعقولات التي تنتج عن استعمال العقل على الوجه الصحيح، المبني على قواعد تزكية العقل التي ذكرناها، وسيتبين لنا من خلالها منطقية البناء التزكوي، وابتناؤه على الحقائق المعقولة، وعلى الإيمان بها.

الفصل الثالث

المنهج الفكري

وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: من خلقتني؟ من أوجدني؟ وما هي صفاته؟

المبحث الثاني: مكانة النبي محمد بن عبد الله ﷺ، ما هي أدلة صدقه؟ ولماذا نتبعه ونطيعه؟

المبحث الثالث: من أنا؟ ولماذا خُلِقْتُ؟ وما هدفي؟

المبحث الرابع: ما هذه الحياة التي نعيشها؟ وهل تصلح هدفاً؟ وكيف نستعملها؟

المبحث الخامس: لماذا بعد هذه الدنيا؟ أين المآل والمرجع؟ ما هو اليوم الآخر؟

المبحث السادس: ما هي لأحكام والقوانين التي تضبط علاقتي، وأسير عليها في حياتي؟

المبحث السابع: كيف أتعامل مع الخلق والكون على وجه المصلحة

المبحث الثامن: ما هو الحد الأدنى من الثقافة والعلوم التي نحتاجها في حياتنا؟

المبحث التاسع: ما هي العلاقة الأهم في حياتك؟ ولماذا ينبغي على مراعاتها؟

المبحث العاشر: قدر النبي محمد ﷺ، ولماذا نحبه أكثر من غيره من الخلق؟

المنهج الفكري

وهو ما يجب أن يعرفه المبتدئ

وإذا عرفه واقتنع به واعتقده فقد قام بحق تزكية عقله وفكره

تمهيد:

- إن من واجب الإنسان أن يبحث عن أهم الحقائق في هذا الوجود الذي

يعيشه:

فيسأل نفسه من أنا؟

ولماذا وُجِدْتُ؟

وإلى أين مصيري؟

من أوجدني؟

وماذا يريد مني؟

ما حقه عليّ؟

ما هذه المخلوقات التي خلقت معي من البشر والكون؟

وما موقعي منهم؟

وكيف أتعامل معهم؟

ومن سأل نفسه هذه الأسئلة وغيرها، ووجد الإجابة الصحيحة، من خلال

الوسائل الصحيحة التي توصل إلى معرفة العلم والحقائق، ثم بنى عليها حياته، فهو

العاقل وهو المصيب، الذي يفكر بطريقة صحيحة، ويعمل عملاً صحيحاً وسليماً.

ومن تجاهل هذه الأسئلة وتجاهل إجاباتها التي تمثل أهم الحقائق في الوجود؛ فإنه يبني حياته على غير هدى، ويضيع عمره فيما لا ينفعه، بل ربما يمضيه فيما يضره وفيما تكون عاقبته وخيمة سيئة.

والوسائل الصحيحة التي توصل إلى العلم والمعرفة: هي العقل السليم، والحواس السليمة، والخبر الصادق، والاستفادة من الحواس كالسمع والبصر مفتقر في تحصيل العلم إلى العقل، وكذلك الخبر الصادق^(١).

فما هي تلك الحقائق والمعلومات التي يجب أن يعلمها كل إنسان، وإذا علمها المبتدئ في تركية نفسه كانت أساساً في توجيه حياته وبناء تركيته؟

هذا ما نجيب عنه من خلال التساؤلات الآتية، مع نموذج من الإجابة عليها^(٢)، تعرّف بالحق وتدل عليه، ومن عرفها واقتنع بها فقد زكّى فكره وعقله، وبها يخرج من غفلة العقل عن الهداية والحق، فيتولد عند الصادق بناءً عليها طلب للحق والخير والنفع والهدى.

وإلى بيان أهم حقائق الوجود:

(١) وهذه أمور بينها علماؤنا في كتب العقائد، وإنما أردت الإشارة إليها للتنبيه، لكن لا بد من تقييد كلامهم بما سبق ذكره من أن الإنسان قد يضل عن الحق والهداية على الرغم من وجود العلم ووجود أسبابه ووسائله، بسبب مرض قلبي أو غيره، لذلك تجد أن العقلاء - غير المجانين - قد يختلفون في حقائق، لا لأن العقل يختلف فيها، بل لتلك المؤثرات من فساد القلب، فسنة الله أن يصرفه عن الحق فلا يدركه، وقد يكون هذا العاقل المكلف مستيقناً بالحق عارفاً به، لكنه يكذب به ويظهر خلافه، فهو ليس بالخلاف العقلي الحقيقي، وإنما لأمر خارج عن العقل، وقد يكون الاختلاف بين العقول في مسائل بسبب بنائها على الحواس أو الخبر، فإذا أخطأت الحواس أخطأ حكم العقل، وإذا قُبل خبراً ظنّه صادقاً وهو ليس كذلك؛ فيكون حكم العقل المبني عليه خطأً.

(٢) وإنما اعتبرت هذه نماذج للإجابة، لأنها قد لا تستوعب كل ما يتعلق بموضوعاتها، فما أذكره لا يغني عن دراسة علم العقائد.

المبحث الأول من خلقتني؟ من أوجدني؟ وما هي صفاته؟

- من الطبيعي في فطرة البشر، ومن المنطقي في عقليتهم؛ أنهم إذا وجدوا شيئاً جديداً تبادرت أذهانهم وعقولهم إلى السؤال: من أين هذا، فإذا دخلت بيتك فوجدت ثلاثة جديدة أو إريقاً جديداً - لم تأت بها أنت، ولم ترها في بيتك من قبل، ولم يكن عندك علم سابق بأنها ستأتيك - فأول ما يخطر في بالك أن تقول: من جاء بها؟ ولا يقبل عقلك التصور بأنها وجدت هكذا صدفة، أو جاءت بنفسها من غير سبب ومسببٍ أتى بها.

والإنسان الفطري العاقل، حينما يبلغ سن العقل والتفكير، فمن الطبيعي أن يتساءل ما هذا الكون الذي حولي؟ من أوجده؟ ما هؤلاء الناس؟ ومن جاء بهم؟ من أنا؟ وما الذي أوجدني؟

وليس من الطبيعي أن تسأل عن إبرة تحركت من مكانها: من حركها، ثم لا تسأل عن هذا الكون كله من يحركه؟ ومن أوجده؟

وليس من المنطقي أن تقول: إن هذا الكون وُجدَ صدفةً، وأنت ترى من المستحيل أن يرمي عشرة رجال عشرة أحجار فتترتب كل مرة الترتيب نفسه صدفةً، فإذا كنت لا تقبل هذه الصدفة الصغيرة، فكيف تقبل أن يأتي الكون منظماً بكل أفلاكه وأجرامه وذراته مرتباً صدفةً؟ والصدفة ليست شيئاً حتى تصنع شيئاً، فكيف تصنع مليارات المليارات من عوالم النظام، وهي عدم.

هذه قاعدة السببية هي القاعدة العقلية الفطرية الأولى والبدئية الأولى التي يحتاج الإنسان أن يفكر من خلالها ليستدل على ضرورة وجود خالق لهذا الكون.

- فيقوده التفكير من خلال هذه القاعدة إلى ضرورة إثبات موجد لهذا الكون خالق له، فيتساءل أين هذا الخالق؟ ومن هو هذا الخالق؟

يتطلع عقل الإنسان إلى معرفة هذا الخالق، وقد يتطلع إلى رؤيته أو الإحساس به إن أمكن، ولكن مهما حاول الناس أن يبحثوا عن هذا الخالق عن غير طريق العقل، أو يصلوا إلى الإحساس به، أو إلى رؤيته؛ فإنهم يعجزون ولا يستطيعون، فقد يتناول بعضهم إلى إنكار وجود هذا الخالق، لأنه لم يره ولم يحس به؟

فها هنا يحتاج العقل إلى قاعدة عقلية ثانية، حتى لا يصل إلى تصور خاطئ، فيدعي عدم وجود الخالق؛ لعدم الإحساس به، هذه القاعدة البدئية هي قاعدة الإيمان بالغيب، وهي أن العقل يثبت وجود أشياء لا يراها ولا يحس بها، وإنما يثبتها نتيجة رؤيته أو إحساسه بآثارها وآثار وجودها.

فالكهرباء إنما عرفناها بآثارها، فنحن إنما نرى أسلاكاً ولا نرى ما فيها من الكهرباء، ولكن ما ينتج عن هذه الأسلاك من حرارة أو طاقة أو إضاءة أو حريق هي آثار تدل على وجود شيء غير مجرد الأسلاك، سمى العلماء الكهرباء، آمنوا بها ولم نرها ابتداءً.

والهواء والرياح لم نره ولا تراه العين، لكن آثاره في التنفس وآثاره في تحريك الغيم والغبار والشجر وأصواته؛ تجعلنا نؤمن بوجوده ونحن لم نره ابتداءً.

وعقل الإنسان لا نراه، فلا نرى حقيقة التعقل كيف تجري في العقول أو القلوب، لكننا نؤمن جميعاً ونوقن أن للناس عقولاً يتعقلون بها ويفكرون، لما نرى من آثار هذا التفكير في التوصل إلى إدراك كل شيء.

وهذه أمور مخلوقة لم يستطع الإنسان أن يحيط بها، ولم يستطع الاهتداء إلى وجودها إلا من خلال آثارها.

والعقل هو الذي به أدرك الإنسان وجود هذه الأشياء من خلال معرفة آثارها والإحساس بآثارها.

فهل يصح للعاقل أن يرفض الإيمان بوجود الخالق لأنه لم يره ولم يحس به، رغم أن يرى آثار قدرته وآثار هدايته، وغير ذلك من آثار وجود الخالق^(١)؟ من الآثار التي لا يقدر على تأثيرها أي مخلوق نعرفه، ولا يمكن أن يتصور العقل وجودها إلا بردها إلى خالق قادر لا يقيد قدرته شيء.

كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فهل يقدر أحد من المخلوقين على أن يحرك الشمس أو القمر هذه الحركة؟ وهل يقدر أحد من المخلوقين على أن يوجدها أصلاً؟ فليس للإنسان إلا أن يعترف بوجود خالق قدرته أعظم من كل المخلوقين.

- وهكذا فما من تساؤل يتساءله الإنسان عن الخالق؛ إلا وقد جعل الله في عقل الإنسان من البدهيات ما يدرك به الجواب الصحيح عن خالقه ووجوده وصفاته، فمن يستعمل عقله السليم وفكره المنظم؛ يعلم قطعاً أن الكون بما فيه من مخلوقات بشرية وجمادات وغيرها لا يمكن أن توجد بنفسها من غير موجد، هو الخالق وهو الله.

- وما يصل إليه العقل ويدركه عن الخالق: أن هذا الخالق لا بد أن يكون متصفاً بصفات:

لا يمكن أن يكون الخالق مخلوقاً مثل المخلوقات، لأنه لو كان مثل المخلوقات؛ لكان محتاجاً مثلهم إلى غيره، فيكون محتاجاً هو والكون إلى خالق آخر، فيكون غيره هو الخالق، ولا يكون هو خالقاً، والخلق مفتقرون إلى الخالق القادر، لا إلى المخلوق العاجز، فلا بد أن يكون الخالق الموجود هو واحد غير مخلوق وغير مفتقر إلى غيره،

(١) انظر أهم تلك الآثار والظواهر، وكيف تدل على وجود الله بوضوح؛ في كتاب «الله جل جلاله» تأليف والدي الشيخ سعيد حوى رحمه الله.

وكل ما سواه مفتقر إليه، فيكون هو الذي خلق كل شيء، وقد أخبرنا الله بهذه الحقيقة، لِنَقْدِرَهُ قَدْرَهُ وَنَعْرِفَ لَهُ حَقَّهُ وَفَضْلَهُ، فأخبرنا بأن الخلق كله خلقه: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧].

وما دام هو خالق كل شيء؛ فهو مالك كل شيء، وكل شيء مملوك له، وقد نبهنا الله إلى هذه الحقيقة، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٧]، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦]، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُوتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وهو واحد في ذاته، لا يمكن أن يكون معه إله ولا رب ولا خالق ولا معين، لا ولد له ولا والد، وقد أخبرنا الله بذلك، وذكر أدلة عقلية على ذلك، قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وقال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الانبياء: ٢٢]، وقال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

أقام الله تعالى في هاتين الآيتين الدليل الكامل على استحالة وجود خالق آخر مع الله، فإنه لو كان موجوداً أكثر من خالق لحاول كل واحد أن يسيطر على ما عند الآخر فكل منهما يتلف خلق الآخر وملكه فلا يستقر خلق مع وجود خالقين، وإذا حاول أحد الآلهة أن يفسد خلق الآخر فاستطاع ولم يستطع الإله الثاني رده؛ فهذا الإله عاجز، والإله الخالق لا يجوز أن يكون عاجزاً محدود القدرة، فلا يمكن أن يكون خالقاً أصلاً، وإن عجز الإله الأول عن إفساد خلقه، فهو العاجز، فلا يمكن أن يكون إلهاً، فالعقل لا يستطيع أن يتصور وجود إلهين معاً، لأنه يترتب على ذلك أمر مستحيل الوجود، وهو وجود خالق عاجز.

واحد في صفاته، فلا يمكن أن يشابهه شيء غيره، إذ غيره مخلوقاته، يتغيرون، ويجري عليهم الزمان، ويحصرهم المكان، وهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤]، ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

وهو الرب فهو وحده الخالق المربي لخلقه المتصرف فيهم والمد لهم والوكيل على كل شيء وهو النافع والضار والمعطي والمانع والمعز والمذل والباسط والقابض، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَفَنُيَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠١-١٠٢]، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءَ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءَ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَبِيرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ﴿كَلَّا نُمَدِّدُ هُوْلَاءَ وَهَوْلَاءَ مِنْ عَطَاؤِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠]، ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢]، ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦].

وهو الإله وحده، وقد بين الله تعالى هذه الحقيقة، فقال: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَحْدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، كما بين سبحانه أنه لا ينبغي أن نتخذ لها ولا أن نعبد إلا الرب الخالق القادر الذي يملك الضر والنفع لغيره، وذلك أمر منطقي تدركه العقول، فخطبنا به الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ ﴿ [يونس: ٣]، وما دام غيره ليس برب لنا فكيف نعطيه الألوهية، وكيف نعبد غيره، وغيره عباد مخلوقون مثلنا: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا ﴿ [الفرقان: ٣]، وقد ذكرت الآيات علامة عدم ربوبية من اتَّخَذَ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وهي أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يقدر على أن يخلق، وبذلك أيضاً ردَّ الله دعوى السامري وبني إسرائيل حينما اتخذوا العجل إلهاً، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خَوَارٍ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ قَتَلَهُ فَأُصْبِحَ نَارًا ﴿ [طه: ٨٨-٨٩].

وقد رد الله تعالى على النصارى ادعاءهم ألوهية عيسى عليه الصلاة والسلام، برد عقلي منطقي سهل، فبين أن عيس محتاج إلى الطعام، والمحتاج إلى المخلوق لا يكون خالقاً ولا يكون إلهاً معبوداً، فهو عاجز محتاج فكيف يصير إلهاً، فقال سبحانه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنَ الطَّعَامِ أَنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُوقَفُونَ ﴿ [المائدة: ٧٥]، ثم رد الأمر في الآية التي تليها إلى القاعدة العامة بأن الذي لا يملك النفع ودفع الضر عن نفسه كيف يكون رباً وإلهاً لغيره، فقال: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ [المائدة: ٧٦].

قادر يستطيع أن يفعل ما يشاء، ولا يمنعه أحد، إذ لو جاز أن يمنعه أحد أو يعارضه لكان فوقه ولكان ربه، فليس الخالق إلا ذلك القادر الذي يقيد قدرة غيره، ولا يقيده غيره، ويهيمن على كل شيء، ولا يهيمن عليه شيء، ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ﴿ [الأنعام: ٦٥]، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ [الأنعام: ١٧-١٨].

ذو إرادة ومشينة، فلا يجوز ولا يمكن أن يكون غيره مقيداً لمشيئته، فإذا أراد أو شاء شيئاً تحقق، ولم يمنعه أحد، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿

[يس: ٨٢]، وإذا لم يُرَدَّ شيئاً لا يمكن أن يوجد أو يكون، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

عالم، فلا يمكن أن يجهل شيئاً وهو خالق كل الأشياء ومقدّرها، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

غني، والعقل يدرك أن الخالق القادر الواحد لا يمكن أن يكون محتاجاً إلى غيره، ويدرك أن كل ما سواه محتاج إليه، فهو غني عن سواه، وغيره فقير إليه، والله تعالى أخبرنا بهذه الحقيقة، فقال: ﴿بَيَّنَّا لِلنَّاسِ آيَاتِهِمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، ولو كان فقيراً محتاجاً لم يكن إلهاً، ولكان محتاجاً إلى إله رب غيره، ولو افترضنا أن الإله الخالق يحتاج إلى إله خالق غيره، فلا بد أن نثبت في النهاية إلهاً غير محتاج إلى غيره، فالإله هو ذلك القادر الذي لا يحتاج غيره، فما يخطر في بال الإنسان من احتمال احتياج الخالق إلى غيره إنما هو وهم يدخله الشيطان على الإنسان، ينبغي أن يستعيذ منه، لأن العقل يقر في النهاية أنه لا بد من مُوجِدٍ لم يوجد أحد، هو الذي خلق كل شيء، والكل مفتقر إليه، فهو الخالق الذي نثبت له صفة الألوهية.

ولأجل ذلك وجب إثبات قدمه، فهو قديم بلا بداية، إذ لو كان حادثاً لم يكن خالقاً، ولكان محتاجاً إلى خالق.

عَدْلٌ، لأن الغني الذي لا يفتقر إلى سواه لا يقع منه الظلم، وإنما يظلم ويعتدي على ما عند الآخرين من هو مفتقر إلى ما عندهم، والله هو الذي يعطي غيره، لا يأخذ منهم شيئاً، لأنهم لا يملكون شيئاً، والملك كله له، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يَطْعَمُهُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وما دام عادلاً فسلم لأحكامه، ولا تخف من قضائه ومقاديره.

- هذه الصفات وغيرها يدرك العقل أن الخالق لا بد أن يكون متصفاً بها، وقد أرسل الله كتاباً، جاء مبيناً هذه الصفات، ومعرفاً لنا بغيرها من صفات الله مما شاء الله أن يعرفنا به، فإن المخلوق مهما بلغ من العقل والعلم؛ لا يمكن أن يعرف كل شيء عن

الخالق فيحتاج إلى أن يُعرِّفه خالقه بنفسه، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: ١١٠]، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وحتى يكون ما جاءت به الرسالة مُصَدِّقاً؛ فقد أيد الله الرسول الذي بلغ إلينا كلام الله وشرعه بالمعجزات، حتى لا يبقى محلُّ للشك ولا مبرر للتكذيب، وكان من معجزاته القرآن، الذي تحدى الله به البشر، فجعل هذا القرآن معجزاً بلغته وهدايته وعلومه وغير ذلك^(١)، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، فإذا لم يستطع البشر أن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل سورة منه؛ فقد ظهر أنه ليس من قول البشر، وأنه من عند الخالق، فوجب الإيمان به، لأن للخالق الحق على خلقه في أن يطيعوه.

- وتفصيل هذه الأمور وأمثالها موجود في علم العقائد والإيمان، ولا بد أن يكون عند الإنسان معرفة بها، وأقل ما يجب معرفته منها ذلك القدر الذي يعرف به ربه ومعبوده، بحيث لا يبقى عنده شك في وجود الله، ولا تردد في شيء من صفاته، ويؤمن ويعتقد بما يتبع ذلك من حق، كإرسال الرسل، ووجود الملائكة، وإنزال الكتب، وأن القرآن هو الكتاب الخاتم المحفوظ، وثبوت الآخرة، وتقدير الخير والشر من الله.

ومن كان يشك بشيء من هذه الحقائق أو غيرها؛ فلا بد أن يفكر، وأن يسأل أهل العلم، وأن يدرس العقيدة ويفهمها، ويعرف أدلة هذه الحقائق، ليزول الشك وتثبت الحقائق، وليستطيع أن يبني بناء التزكية عليها بناءً صحيحاً.

وسنفصل بعض هذه الحقائق مما نراه مهماً في تأسيس التزكية في النفوس، بالقدر الذي لا بد من ذكره، لتعلق معاني التزكية وأعمالها به.

(١) انظر في تفصيل ذلك وبيانه: كتاب «النبا العظيم» للدكتور عدنان زرور، وللشيخ عبد المجيد الزنداني والشيخ زغلول النجار اهتمام كبير بجانب الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، يمكن الاطلاع عليه في كثير من محاضراتها وكتبها، والكتب المؤلفة في معجزة القرآن وما فيه من إعجاز كثيرة.

كيف تؤدي الحقائق والمقدمات الاعتقادية الإيمانية

إلى إنشاء التزكية في نفس الإنسان

كل حقيقة يؤمن بها الإنسان لها أثرها في نفس الإنسان وقلبه وسلوكه.

والإيمان بالله وصفاته له الأثر الأكبر في إيجاد التزكية والصلاح عند الإنسان في فكره وقلبه ونفسه وقوله وعمله وخلقه، فالعقيدة الحق هي الأساس الذي تبني عليه التزكية.

وحتى يكون بناء التزكية صحيحاً لا بد أن تكون المقدمات الإيمانية الآتية واضحة وثابتة ويقينية عند طالب التزكية:

- قضية وجود الله، هي أعظم حقيقة في الوجود وأهمها، فلا بد أن نعرف هذه الحقيقة ونؤمن بها، ونعتقد بها عن دليل واقتناع، وأن نتذكرها ولا ننساها، وأن ننشئ حياتنا بناءً عليها.

- وما دام الله هو ربنا وخالقنا فيجب علينا أن نتخذة إلهاً لنا نعبد، ولا نعبد غيره لأن غيره مثلنا مفتقر إلى الله، وكيف نقدم عبادة لمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فكيف ينفعنا بعبادته.

وهذا التفكير وهذا النظر العقلي المنطقي المرتب هو الأساس المقنع للإنسان بوجوب إقرار العبادة لله وحده، وبوجوب الاجتهاد في إقامة العبادات له سبحانه، والعبادات هي أهم الأعمال التي تزكو بها النفس، بعد الاعتقاد الحق، وبعد وجهة القلب السليمة.

- لما كان الله هو الخالق لكل شيء، فالوجود كله له وكله ملكه، ومالك الشيء أحق بأن يحكم في ملكه، فالله أحق بالحكم في مخلوقاته جميعاً، أحق من أي حاكم أو ملك أو قاضي أو عالم، وأحق من نفسك، لأنهم جميعاً خلقه وملكه وعبيده، وليس أحد منهم أعلم منه، ولا أحكم منه.

وما دام هو مالكننا وحده؛ فليس لأحد لا يملكنا أن يتدخل في طريقة حياتنا، ولا أن يحكم علينا، ولا أن يُشَرِّعَ لنا، بل المالك الخالق هو الذي له الحق في أن يحكمنا ويأمرنا بما يشاء ويشرع لنا ما يريد ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧، يوسف: ٤٠، يوسف ٦٧] ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالذي يخلق هو الذي له الأمر في خلقه.

- ما دام الله هو الحاكم الأمر، الذي يستحق وحده أن يحكم، فلا بد من طاعته في حكمه باتباع أمره وترك نهيهِ، والاستقامة على ذلك هو الذي يحقق التزكية على كمالها.

- لما كان أمره واجب التنفيذ، ونهيهِ واجب الترك؛ فلا بد أن نتعلم أحكامه من الأوامر والنواهي ونفهمها، لنُطبِّقها، وهذا العلم ينبغي أن يؤخذ من المصدر الذي أرسله إلينا والرسول الذي يبلغنا عنه، فنأخذ العلم من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ الصحيحة الثابتة عنه، ومما استنبط منها أو بُني عليها.

فطلب العلم راجع إلى اعتقادنا بأن الله هو الحاكم المطاع، وطلب العلم جزء مهم من التزكية، لأن العمل بما تركز به النفوس لا يكون إلا بعد العلم به.

- ورجوعنا إلى القرآن الكريم وإلى الرسول ﷺ، متوقف على الإيمان بصدق الرسول، فلزم التأكد من وجود الصدق عنده، ولزم التأكد من تأييده بالمعجزة التي تقطع الشك به، أما وقد أيده الله بمعجزات لا يقدر عليها البشر جميعاً فقد انقطع الشك، ووجب الإيمان بصدقه في كل ما ينسبُ إلى الله ويبلغه عنه، ووجبت طاعته فيه، مما ثَبَّتَ لنا صحة نسبته إليه.

- وحكم الله يشمل كل شيء في حياتنا، من أحكام تتعلق بقلوبنا ونياتنا ورغباتنا وخواطرها، ومن أحكام تتعلق بالستتنا وأقوالنا، ومن أحكام تتعلق بجوارحنا وأعمالنا، ومن أحكام تتعلق بالعبادات فرضاً أو نفلاً، ومن أحكام تتعلق بالمعاملة مع الناس، مع الأفراد ومع المجتمع، على مستوى العلاقات الصغيرة في العائلة والجوار، وعلى مستوى العلاقات الكبيرة التي تحكم المجتمع المسلم، والتي تحكم التعامل مع غير المسلمين، ومن أحكام تحكم إقامة العمران والحضارة والتقدم، وغير ذلك.

ومن تعلم كل أحكام الله ظاهراً وباطناً، وعمل بها جميعاً؛ فقد صارت نفسه متصفة بكل صفات التزكية.

ولا شك أن في كل أمر ونهي مصالح ومنافع يدركها العقل، ولكن سواء أدركها أو لم يدركها، فما ذكرناه كاف لإقناع العقل بوجوب الطاعة لله عز وجل.

- والإخلاص لله قائم على الحقيقة الآتية: حينما تعلم أن الله هو وحده الذي يستحق أن يعبد، وهو وحده الذي يستطيع أن ينفعك أو يضرك، فكيف تعمل عملاً تتوجه به لغير الإله المعبود بحق، وكيف ترجو بشيء من عملك نفعاً ممن لا يملك النفع، فلا بد أن تتفانى في طاعة مولاك حتى لا يخطر في بالك رياء لغيره، لأن مصالحك كلها راجعة إلى الله.

- وحب الله قائم على الحقيقة الآتية: الله تعالى هو المتصف بصفات الكمال والجمال، وهو المحسن المتفضل على جميع خلقه بخلقهم وإمدادهم، لا نجد أحسن ولا أكمل منه، ولا نجد أكثر إحساناً إلينا منه، فيجب أن نحبه لأجل ذلك، ولا بد أن نبني على حبه كل حب وكل علاقاتنا، لأن مصالحنا ترجع إليه ومتوقفة على فضله، وعلاقتنا الأهم هي التي يجب أن تكون أساس العلاقات الأخرى مع الخلق جميعاً، وعلاقتنا الأهم هي علاقتنا مع الله، فيجب أن نحبه من أحب الله ونواليه ونصاحبه، ونبغض من أبغض الله ونتبرأ منه ونفارقه، ولأجل ذلك نحبه الأنبياء عليهم صلوات الله ونحب أولياء الله المؤمنين، لأنهم أحباب الله الذين أرضوه وعملوا بأحكامه، ونكره أعداء الله، لأنهم أغضبوا الله خالقهم، وخالفوا أحكامه.

- وفضل الله علينا وإحسانه لنا وحبنا لنا، وكونه أهم موجود؛ يقتضي التعلق بالله وذكره والحضور معه والطاعة له وترك معصيته.

فإذا أدرك العبد هذه العقائد وعمل بمقتضاها فذلك الذي يعطي حقيقة التزكية ويوصل إلى أحسنها، إذ سيكون بذلك موحداً مخلصاً لله عالماً بأحكامه مستقيماً على أحكامه في كل حال.

وهذه العقائد كما تنشع أساس التزكية، فإن حضورها في الذهن وتذكُّرها والعمل على مقتضاها دائماً يوصل إلى أعلى مقامات التزكية وثمراتها العظيمة.

وفي كل مرحلة من مراحل التزكية لا بد أن ترافقه هذه العقائد واستحضارها، وينضاف إليها غيرها في كل مرحلة بحسب ما يناسبها وما يناسب أعمالها وصفاتها وخصائصها، أي أحوالها ومقاماتها.

- وإذا علمنا أن الله هو الحاكم، فكيف جاءنا حكمه؟ ومن بلغنا جميع أحكامه

عن الله؟

لقد أرسل الله رسلاً لهذه المهمة، وختمهم بالنبى الرسول محمد بن عبد الله ﷺ، فما الدليل على أنه رسول الله؟ ولماذا نصدق في ذلك؟ وما هو موقفنا منه؟ ولماذا نؤمن بأنه نبى؟ ولماذا نطيعه في كل أقواله؟ ولماذا نتبعه في كل أفعاله؟

المبحث الثاني

مكانة النبي محمد بن عبد الله ﷺ،

ما هي أدلة صدقه؟ ولماذا نتبعه ونطيعه؟

مما يتساءل عنه الإنسان العاقل: ما دام الله تعالى هو صاحب الحق في أن يُعبد ويحكم؛ فما هو المصدر الذي وصلتنا أحكام الله من خلاله، وما موقفنا تجاهه، وما واجبنا نحوه؟

لقد أرسل الله تعالى نبيه محمداً بأمور عظيمة، بما يُغيّر حياة الناس، ويلزمهم أن يكونوا على طريقة معينة ويقيدهم بأحكام كثيرة، ويخبرهم بأمور لا يمكن أن يعرفوها بالعقل أو بالتجربة؛ من إثبات صفات الله وأفعاله، وإثبات الآخرة ووصف الجنة والنار، وغير ذلك.

ولا يصح أن نصدق ونتبع من يدعي هذه الأمور ويدعي أنه على الحق وأنه مرسل من عند الله؛ حتى نعلم صدقه، ونزول كل شك فيه.

لذلك نبه الله تعالى العقول أن تنظر في شأن النبي ﷺ وتستبين صدقه وجمال ما يُحدّث به، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْيَافٍ تُبَدِّلُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْقُرْآنِ الْمُبِينِ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْقُرْآنِ الْمُبِينِ﴾ [الأنعام: ١١٠]. [سبأ: ٤٦]

وقد خاطب الله بهذا الخطاب أولئك الذين أصرّوا على تكذيب النبي وأدّعوا أنه شاعر وكاهن ومجنون وكذاب، وهم يعلمون أنه ليس كذلك، ويعلمون صدقه قبل

بعثته وبعدها^(١)، ويعلمون أن الكتاب الذي جاء به لا يستطيعه البشر، ومع ذلك أصروا على التكذيب، لذلك بين الله كذبهم وانحرافهم، فليس في النبي ﷺ ما يدل على شيء من هذه التهم، وإنما هي نعمة الله الذي اختاره لحمل رسالته ودينه، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْهُمْ أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ يَكَاهِنُ وَلَا يَجْتُنُونَ﴾ [الطور: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وإذا ثبت صدق النبي ﷺ فذلك كافٍ لتصديقه في رسالته عن الله، ما لم يأت شيء يقتضي التكذيب، وعلى الرغم من ذلك فإن الله يعلم ما قد يثيره كثير من الناس من شكوك وجحود، فأعطى الأنبياء معجزات خارقة للعادة خارجة عن قدرة البشر تحداهم بها، ليقطع بها حجج الخصوم والمنكرين، وليزيد المؤمنين إيماناً وثباتاً و يقيناً.

(١) وكما لم يكن خافياً على قريش والعرب صدق رسول الله ﷺ، كذلك لم يكن يخفى رسول الله ﷺ على أهل الكتاب أيضاً، فأوصافه وأوصاف أصحابه في كتبهم، يعرفونها، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْقَهُونَهُ كَمَا يَفْقَهُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَلَئِنْ قَرَيْتُمْ بِهِمْ لَبِئْسَ مَا يَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجَجٍ أُخْرِجَ شَطَقُهُ فَأَزْرَهُ فَاسْتَفْظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَصِيْطَ بِهِمْ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَقْنَاهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، روى أهل السيرة في تفسير هذه الآية أن اليهود كانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عند قريش فإذا كان بينهم وبين قريش شر قالوا لهم: إنه سيأتي نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث النبي ﷺ أجاب من أجاب من قريش وآمنوا، وكفرت يهود، انظر: السيرة النبوية، لابن هشام: ج ٢، ص ٣٧.

وقد أعطى الله نبيه محمداً ﷺ من دلائل النبوة شيئاً كثيراً، سواء في صفات شخصه أو في المعجزات التي أيده فيها أو في طبيعة الرسالة التي أرسلها إليه، أو غير ذلك^(١).

من معجزاته ﷺ:

١. إنك لو نظرت إلى هذا الدين الذي جاء به النبي محمد ﷺ، من خلال نظرك إلى الكتاب والسنة ومعانيها وجلالهما، ثم نظرت إلى طبيعة البيئة العربية مع ما كان فيها من جاهلية وظلم وفساد؛ لقلت إنه من المستحيل أن تفرز البيئة العربية هذا الدين ومعانيه، حتى غيرت أخلاق العرب وارتقت بهم، وهذه معجزة وحدها دالة على أن هذا الدين ليس من عند بشر، وليس هو من اختراع النبي ﷺ، بل هو من عند الله.

٢. وإذا نظرت إلى هدي النبي ﷺ في كل صغيرة وكبيرة، تعلم أن هذا أمر يعجز البشر لولا تأييد وحي من الله وتوفيق، فإن كل التشريعات البشرية لم تستطع أن تفصل في قوانينها في كل صغيرة وكبيرة، وفي كل شأن من شؤون الحياة، فكيف يستطيع شخص وحده أن يشرع كل هذه التشريعات، لولا أن الذي يعلمه هو الله العليم بكل شيء والخبير بكل شأن.

٣. وإذا نظرت إلى معاني القرآن وتشريعاته، وجمالها وإحاطتها وشمولها وعدالتها، فذلك كاف لتصديق النبي ﷺ، وإثبات أن رسالته من عند الله لا من عند نفسه، ذلك أنه ما من تشريع سواه إلا وفيه من العيوب بحيث يحتاج المشرعون من البشر أن يغيروه وأن يعدلوه، وما من تشريع غير تشريع الله إلا وفيه نقص، ينتظرون حتى يحصل الأمر فيبحثون عن قانون له، وما من تشريع للبشر إلا وفيه أهواؤهم وميوهم وشهواتهم التي يحققها المشرع لنفسه أو لبعض الناس، فيظلم غيره، ولا يكون قانونه في مصلحة الآخرين، بينما شرع الله لا أهواء فيه ولا ميول، فالله عدل حق منزّه عن الحيف والظلم والإجحاف.

(١) انظر في تفصيل ذلك كتاب «الرسول ﷺ» من تأليف والدي الشيخ سعيد حوى رحمه الله.

٤. وإذا نظرت إلى القرآن وما فيه من جمال في النظم والبيان، وقد تحدى الله تعالى البشر جميعاً أن يأتوا بمثله، فعجزوا، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، والذين نزل عليهم القرآن كانوا أعرف الناس باللغة، سبقوا من قبلهم ومن بعدهم، ومع ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بسورة أو آية، فغيرهم أعجز فثبتت المعجزة للنبي ﷺ بذلك ووجب التصديق بما يقول من أنه مرسل من عند الله مؤيد منه.

٥. ولو نظرت إلى ما في القرآن من إعجاز علمي^(١)، من خلال ذكر نظريات علمية بذل العقل البشري في هذا الزمان سنوات وجهوداً وأموالاً طائلة حتى وصل إلى نظرية فيها تحتمل الشك والخطأ، تجد القرآن يذكرها بكلمات معدودة مقررّاً حقائقها^(٢)، ومن يعلم ذلك إلا الله، ومن يعلم ما في ملكه إلا الله، كل ذلك يدل على

(١) والإعجاز العلمي هو نوع من أنواع الإعجاز الغيبي، فهو إنباء عن أمور موجودة في الكون كانت غيباً عن الناس حتى اكتشفها أهل العلم في عصرنا الحديث، فالقرآن قد أخبر عن هذا الغيب قبل أن يصير معلوماً ومشهوداً للناس، ولم يكن العلم من التقدم بحيث يتمكن الإنسان في زمن نزول القرآن من معرفة هذه الأمور، فدل ذلك على أن الذي يخبر بهذه الأمور هو العالم بالغيب والعالم بالكون الخالق له، فهي تدل على وجود الخالق العالم بخلقها، كما تدل على أن الذي يوحى إلى النبي ﷺ هو خالق هذا الكون العالم به.

(٢) من الإعجاز العلمي في القرآن آيات ورد فيها تنبيه أو إشارة إلى حقائق علمية لم يكتشفها البشر إلا في هذا العصر، ومن ذلك:

قول الله تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ * وَلَا أَقِيمُ النَّفْسِ الْوَامَةَ * أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عَظَامَهُ * بَلْ قَدِيرٌ عَلَّامٌ شُورَى بَنَاتِهِ﴾ [القيامة: ١-٤]، يقول العلم الحديث: لكل إنسان بصمة خاصة ولا تتطابق البصمة حتى في التوائم.

وقال سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]، يقول العلم: الشمس ليست ثابتة، بل هي تسبح في الفضاء، والشمس مع المجموعة الشمسية التابعة لها تدور حول مركز مجرتنا درب التبانة بسرعة ٢١٧ كم في الثانية، أي ١٣٥ ميل في الثانية، يعني أنها تقطع في الساعة ٤٨٦ ألف ميل في الساعة، وتدور الشمس حول نفسها بسرعة ٢٢٠ كم في الثانية.

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ الْإِلَهَ النَّهَارُ يَلْبَسُهُ حِجَابًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، يقول العلم: الأرض تدور حول نفسها بسرعة ٢٩ كم في الثانية تقريباً، مما يولد الليل والنهار، ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]، يقول العلم: الأرض ليست مسطحة، وإنما هي كرة مدحوة [مبسوطة] من وسطها، فلا هي كروية مئة بالمئة، ولا هي بيضوية كذلك. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، يقول العلم: الغلاف الجوي المحيط بالأرض يعمل على حفظها وحمايتها.

وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ دَانِيًا رَّجَعْنَا الْمَاءَ إِلَى الْبُحْرِ﴾ [الطارق: ١١]، يقول العلم: ترجع السماء المطر إلى الأرض، وترجع الصوت، وتصد الغازات الكونية.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَافِرُهُ أَنْ يُزَفِّقَهُ بِالْأَبْصَرِ﴾ [النور: ٤٣]، قال العلم: تدفع الرياح الغيوم وتراكمها فوق بعضها فتكاثف وتبدأ بالهطول مشكّلة المطر، وهذا أمر معروف عند السابقين، لكن الإعجاز في الآية أنها تكلمت عن نوع معين من السحاب وهو السحاب الركامي، وقد وصفته الآية بوصف دقيق بأنه كالجبال، فالغيمة الواحدة منه يتراوح ارتفاعها بين ٥ و ١٠ كم، وخصصته الآية بالبرد، والبرد لا يتكون إلا في هذا النوع من السحاب، وكذلك ذكرت بشكل عام تكوّن البرق فيه، ونسبته إلى البرد، وهو ما لم يكن معروفاً حتى القرن العشرين.

وقال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِينَ ۚ أَرْوَجَ يُخَلِّقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]، قال العلم: ينمو الجنين في ظلمات ثلاث: جدار البطن والرحم وأغشية المشيمة.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، قال العلم: بالصعود لأعلى ينخفض الضغط الجوي وتختل نسب الغازات في الأعلى، وكذلك تختلف قيمها عما هي عليه في سطح الأرض، فيختل دخول الغازات وخروجها إلى الحويصلات الهوائية، ويحصل ضيق الصدر، ثم الحرج، وهو مرحلة الانغلاق التي لا يستطيع الإنسان التنفس بعدها.

أن مصدر هذا الشرع كله من عند الله خالق الكون ومالكه^(١).

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَئِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] قال العلم: لأذن الإنسان مجال سمعي محدود، فما زاد عنه من ترددات صوتية أو ما انخفض عنه لا يسمعه الإنسان، وقد تسمعه كائنات أخرى، فغالبية الحيوانات مجالها السمعي أوسع من الإنسان.

وقال تعالى عن أهل الكهف وهم في نومتهم الطويلة: ﴿وَحَسْبُكُمْ أَنْفَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُكُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكُلُّهُمْ بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ [الكهف: ١٨]، قال العلم: إذا لم يتقلب المغمى عليه لفترة طويلة أو المريض العاجز عن الحركة؛ فإن ذلك يؤدي إلى تقرحات في الجسم، بسبب حصول خلل في تروية الدم للأعضاء عند عدم التقلب.

وقال تعالى: ﴿أَوْ كُظِّلُمْتُ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ بَكَدُّهُ أَوْ يَكْدِرُهَا مِنْ رَبِّ يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، قال العلم: في البحار العميقة أمواج داخلية عظيمة كبيرة، وهذه الأمواج مع العمق تسبب ظلمة شديدة كما بينت الآية.

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، قال العلم: حديد الأرض هو نتاج انفجار نجم كبير استقرت شظاياه في الأرض.

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ فَدَحْنَا عَلَيْهِمُ آبَا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]، قال العلم: في الفضاء ينعدم التشتت الضوئي، فترى الظلام الأسود الحالك، ﴿وَأَيُّهُمْ أَتَلَّ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

(١) والأمور التي تدل على أن القرآن حق من عند الله غير ما ذكر كثيرة، منها: أن القرآن يجبر عن أمور ستقع، فتقع كما أخبر، فقد أخبر الله عن نصر الروم، فقال: ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٢-٤]، وقد حصل، وأخبر الله عن أبي لهب ما يدل على أنه سيموت كافرًا، فقال: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١-٣]، وعاش بعدها سنوات ولم يؤمن، وأخبر الله أنه سيفتح على الناس في شأن العلم فيرون الآيات في الآفاق، ﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقد تبينت آيات كثيرة، ورأى الكافرون بأعينهم ذلك قبل غيرهم، وغير ذلك مما لا يعلم غيبه إلا الله، فلا يمكن أن يكون صاحب هذا القرآن المتكلم عن المستقبل الذي لا يخطئ إلا الله الخالق، فذلك ليس من قدرة المخلوقين.

ومعجزات النبي ﷺ عدا عن معجزة القرآن كثيرة جداً، وواحدة منها كافية لتصديق النبي، فكيف إذا اجتمعت العشرات والمئات من المعجزات^(١).

(١) انظر للتوسع في ذلك كتاب والدي رحمه الله: «الأساس في السنة وفقهها» قسم السيرة النبوية ج ٣، ص ١١٣٣ فما بعدها، وهذه بعض معجزات النبي ﷺ الثابتة:

روى البخاري أن النبي ﷺ حينما كان عروساً بزينب، أهدت إليه أم سُلَيْم قليلاً من تمر وسمن وأقِط، فأرسلتها مع ابنها أنس، فقال ﷺ ادع لي رجالاً ساهم وادع لي من لقيت، قال: فرجعت فإذا البيت غاص بأهله، فوضع ﷺ يده في الحيسة وتكلم بها شاء الله، ثم جعل يدعو عشرة عشرة، حتى أكلوا جميعاً، وفي رواية مسلم: كانوا زهاء ثلاثمائة.

وروى مسلم أن أبا طلحة دعا النبي ﷺ إلى طعام يكفي نحو عشرة، فجاء النبي ﷺ ومعه رجال كثيرون ودعا بالبركة فأكلوا عشرة عشرة، وبقي الطعام كما هو، ثم أكل أهل البيت والنبي ﷺ وفضل عنهم وأعطوا جيرانهم. وفي رواية كانوا نحو خمسين.

وروى البخاري رقم ٣٨٧٥ ومسلم رقم ٢٠٣٩ - فيما معناه - أن جابر بن عبد الله رأى أن الجوع قد أصاب النبي ﷺ بعد حفر الخندق فذبح شاة صغيرة، وهياً عجينة، ودعاه سراً وقال له: تعال أنت في نفر معك، فصاح النبي ﷺ: يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع لكم سوراً [أي وليمة] فحيّلاً بكم، وأمرهم أن لا يخرجوا الطعام من القدر ولا يدخلوا العجينة في الفرن حتى يأتي، فجعل يطعمهم من القدر والفرن، وكانوا ألفاً، أقسم جابر بالله أنهم أكلوا جميعاً والبرمة [أي القدر] كما هي، والعجينة ما زالت تُخبز. وقد حصل مثل ذلك كثيراً في حياة النبي ﷺ.

وروى البخاري عن جابر أن والده عبد الله استشهد يوم أحد وكان عليه دين، فاشتد الغرماء في حقوقهم، فأتيت رسول الله ﷺ فكلّمته، فسألهم أن يقبلوا ثمرَ حائطي، ويحللوا أبي، فأبوا فلم يعطهم ولم يكسره لهم [أي لم يقسم الأرض لهم]، ولكن قال: «سأغدوا عليك إن شاء الله»، فغدا علينا حين أصبح فطاف في النخل، فدعا في ثمره بالبركة، فجددتها [قطعتها]، فقصبتهم حقوقهم، وبقي لنا من ثمرها بقية، ثم جثت رسول الله ﷺ وهو جالس فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ لعمر وهو جالس: «اسمع يا عمر»، فقال عمر: ألا يكون قد علمنا أنك رسول الله، والله إنك لرسول الله.

وروى البخاري عن ابن مسعود ؓ قال: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً، كنا مع رسول الله في سفر، فَقَلَّ الماء، فقال: اطلبوا فضلةً من ماء، فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: «حيّ على الطهور المبارك، والبركة من الله تعالى، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل.

وروى البخاري عن جابر أنهم في يوم الحديبية كان معهم ركوة ماء لم يكن معهم غيرها، فوضع النبي ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشريوا وتوضأوا وكانوا خمس عشرة مائة [أي ألفاً وخمسمئة] قال: لو كنا مائة ألف لكفانا. وقد تكرر نبع الماء من أصابعه كثيراً. وقد روي أكثر من حديث في مسحه ﷺ على الشاة ودعائه بالبركة فتحلب ما لا تحلب عادة، وأسلم من أسلم بسبب ذلك.

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: كان جذع يقوم إليه رسول الله ﷺ فلما وُضِعَ له المنبر سمعنا للجدع مثل أصوات العِشَار [العُشْرَاء: الناقة التي بلغت شهرها العاشر شهر ولادتها]، حتى نزل رسول الله ﷺ فوضع يده عليه. وفي رواية: فجعلت تنن أنين الصبي الذي يُسكت، حتى استقرت قال: بكت على ما كانت تسمع من الذكر.

وروى الترمذي عن علي بن أبي طالب ؓ قال: كنت مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله.

وروى الدارمي عن ابن عباس قال: أتى رجل من بني عامر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: ألا أريك آية؟ قال: بلى، قال: فاذهب فادع تلك النخلة، فدعاها فجاءت تنقُزُ بين يديه، قال قل لها ترجع، قال لها رسول الله ﷺ ارجعي فرجعت حتى عادت إلى مكانها...

وروى ابن حبان رقم ٦٥٠٥ والبزار والطبراني عن ابن عمر ؓ أن النبي ﷺ دعا أعرابياً إلى أن يسلم ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، قال: مَنْ شاهد على ما تقول؟ قال: هذه الشجرة، فدعاها رسول الله ﷺ وهي بشاطئ الوادي، فأقبلت تحُدُّ الأرض خدأً، حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً، فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى مَنبَتِها ورجع الأعرابي إلى قومه، فقال: إن يتبعوني أتيتكم بهم، وإلا رجعت إليك فكنت معك.

وروى أبو يعلى عن علي قال: ما رَمَدْتُ ولا صَدَعْتُ منذ مسح رسول الله ﷺ وجهي وتفل في عيني يوم خيبر حين أعطاني الراية.

روى الحاكم عن أنس قال: كان أسيد بن حُضير وعَبَّاد بن بشر عند النبي ﷺ في ليلة ظلماء حندس [شديدة الظلمة] فلما انصرفوا أضاءت عصا أحدهما، فمشيا في ضوئها، فلما افترقا أضاءت عصا الآخر.

روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان ؓ قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء.

وفي قصة بشراه يوم حفر الخندق إذ قال: «إني حين صَرَبْتُ الضربة الأولى: رُفِعَتْ لي مدائن كسرى وما حولها، ومدائن كثيرة حتى رأيتها بعيني» فقالوا: ادع الله أن يفتحها علينا ويغنمنا

كل هذه المعجزات وغيرها كثير؛ إنما جعلها الله تصديقاً للنبي محمد ﷺ فيما يقوله من أنه مرسل من عند الله.

وإذا ثبت أنه صادق وأنه مرسل من عند الله وجب أن نطيعه في كل ما جاء به، لأنه إنما يأمرنا بأمر الله، الله الذي له الحق في أن يحكم في خلقه، ويأمر فيطاع.

ومن لم يعرف هذه الحقائق فكيف يحرص على طاعة النبي ﷺ، ومن عرفها واقتنع بها كيف لا يطيع النبي ويتابعه، لذلك لا يمكن أن يجتهد الإنسان في تزكية نفسه من خلال طاعة الأوامر التي جاء بها النبي ﷺ إلا أن تكون هذه الحقائق واضحة ثابتة في ذهنه.

وقد ثبت من خلال هذه الحقائق أن القرآن الكريم حق وصدق، من عند الله، وهذا الذي يدفع المؤمن إلى أن يقرأ القرآن ويعمل به، والقرآن هو أعظم ما يزكي النفس ويزيد الإيمان، ﴿وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وإذا ثبت لنا أن الله هو خالقنا، وأنه المالك لنا، والحاكم علينا، وأن النبي ﷺ هو الذي أوصل إلينا أحكام الله علينا، فمن خلال ذلك ندرك من نحن، وما هي وظيفتنا وهدفنا في حياتنا، وهذا بيان ذلك:

ديارهم ويخرب بأيدينا بلادهم فدعا ﷺ بذلك «ثم صرّبت الضربة الثانية فرفعت لي مدائن قيصر وما حولها حتى رأيتها بعيني» ودعا لهم بمثل الأول، «ثم صرّبت الثالثة فرفعت لي مدائن الحبشة وما حولها من القرى، حتى رأيتها بعيني» قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم».

وروى البخاري ومسلم بشري النبي ﷺ بركوب ناس من هذه الأمة غزاة في سبيل الله وبشر أم حرام بنت ملحان بأنها منهم وقد كان، فركبت مع زوجها عبادة بن الصامت وجاهدت في البحر زمن معاوية. وبشر ﷺ بفتح مصر وبشر بفتح قسطنطينية وقد فتحتا.

المبحث الثالث من أنا؟ ولماذا خُلِقْتُ؟ وما هدي؟

إن الإنسان إذا فكّر قليلاً في شأن نفسه، وشأن الحياة التي يعيشها، وشأن الكون الذي خُلِقَ فيه، وفكّر لماذا هو موجود، وهل لوجوده مقصد وفائدة وهدف، إذا فكّر بهذا - بعد أن عرف أن له رباً خالقاً معبوداً، وبعد أن عرف أن الله رسالة أرسلها إلى خلقه - فإنه يصل إلى حقائق:

أنه مخلوق مملوك لله الذي خلقه ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فعلى العبد أن لا يتعدى رتبته ولا يتجاوز قدره.

وأنه لا بد أن يرجع إلى الله ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فعلى العبد أن يستعد للقاء الله وللنجاة يوم الرجوع إليه.

وأنه لم يُوجد عبثاً قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وإنما أوجده الله بحق وحكمة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨]، فعلى العبد أن يعرف المقصد الذي لأجله خلق، فيجعله الهدف الذي يعيش له.

وأنه ليس للإنسان أن يعيش كما يريد فيعبد نفسه وشهواته وهواه، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، بل لا بد أن يخضع للملكه وخالقه، فيكون عبداً له ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وحياة الإنسان كلها ينبغي أن تكون مبنية على هذه الحقائق، فمن خلالها يجدد وظيفته في الحياة وأهدافه وأعماله.

والتزكية إنما تكون تزكية إذا كانت ملتفتة إلى هذه الحقائق، فبقدر ما يحقق الإنسان المقصد الذي خلق له؛ يكون زاكياً، وبقدر ما يخضع للملكه يكون زاكياً، وبقدر ما يتصف بصفته الحقيقية، صفة العبودية؛ بقدر ما يكون زكياً، وبقدر ما يُقدَّر الله قدره فيعرف له صفاته - صفة الألوهية والربوبية وغيرها - بقدر ما يكون زكياً.

إن فهم هذه الحقائق والانتباه إليها يجعل للإنسان هدفاً في هذه الحياة يبحث عنه، يسعى إليه، يريد أن يحققه، هذا الهدف هو نفسه المقصد الذي خلقه الله لأجله.

إن الذي يعيش في الحياة الدنيا ولم يعرف ما الهدف الذي يسعى إليه لا شك أنه تائه ضائع، بل قد يكون مفسداً في حق نفسه وغيره، لأنه لا يسير في الاتجاه الصحيح لجهله بهدفه أو غفلته عنه.

اعرف ما الذي يريدك الله منك، واجعله هدفك في حياتك

- إذا عرفت أيها الإنسان أنك عبد لله، وأنه قد خلقك لتحقيق العبودية، فالمقصد الذي خلقك الله له هو الذي يجب أن تجعله هدفك الذي تسعى إليه، وتحقيقك لذلك هو تزكية نفسك وصلاحتها، وتضييع ذلك هو فسادها وتدسيتها.

أهم مطلب للإنسان وأهم مقصد هو ما خلق لأجله وهو العبودية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ومن جعل العبودية بإخلاصها وأعمالها وأخلاقها مقصوده ثبت على الطاعة والعبودية حتى يتوفاه الله، لكن الذي يجعل لنفسه هدفاً مقاماً معيناً، أو جعل هدفه أن

يذوق حلاوة الطاعة؛ فربما وقف بعض عمله وقصر في اجتهاده إذا ظن أنه بلغ المقام الذي يريده، أو يتوقف عن اجتهاده إذا يئس عن بلوغ المقام الذي جعله لنفسه هدفاً، لكن العبودية وأعمالها لا انتهاء لها إلا بالموت، فمن جعلها مقصوده استقرّ في نفسه أنه لن يتركها إلا بمغادرة الحياة: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] ويعني باليقين الموت، لأن كل بشر متيقن بأنه سيأتيه^(١)، فالقصد الذي خُلقنا له لا ينتهي العمل لأجله إلا بانتهاء الحياة عند الموت.

والعبودية تشمل مقامات لا يحصرها الخلق، فبقدر ما تطلب منها مقاماً أعلى وبقدر ما يكون هدفك الذي رسمته لنفسك سامياً وعالياً؛ يكون السعي إليه والعمل لأجله أقوى وأعظم، وتدوم الهمة والعزيمة معه أكثر، فمن جعل هدفه أن يزحزح عن النار؛ ليس كمن جعل هدفه أن يكون من الصّديقين.

والعبودية منها ما هو واجب ومنها ما هو مندوب، فأقل ما يجب على الإنسان أن يجعله هدفاً له: أن يحقق تلك الواجبات، ومن الواجبات ترك المحرمات، وأهم الواجبات الإيمان، ولكن العاقل لا يكتفي بالحد الأدنى من العبودية، وإنما يحاول أن يتحقق بصفته اللازمة له - صفة العبودية - في كل وقت، فيجتهد ليتحقق بالعبودية على أكمل وجه.

ومهما بلغ الإنسان في الدنيا فلا يزال أمامه مقامات من مقامات العبودية يترقى فيها ويزكي نفسه بها، ألا ترى إلى رسول الله ﷺ وهو أكمل الخلق يطلب المزيد ﴿وقل رب زدني علماً﴾، ومهما بلغنا فلن نبلغ قريباً من رسول الله ﷺ، أفلا نطلب المزيد؟ فجدد طلب الهدف الأسمى أننا بعد الآن، ليكون دافعاً وباعثاً لك إلى العمل، وليكون مذكراً لك بقيمة مقصدك وعلوّه، فلا تلتفت إلى السفاسف والمحقرات والدنايا، ولا تقف عندها.

(١) سمي الله تعالى الموت يقيناً لأنه مُستيقن مجيؤه عند الخلق جميعاً، قال البيضاوي في تفسيره ص ٣٨٣: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] أي الموت، فإنه متيقن لحاقه كل حي مخلوق، والمعنى فاعبده مادمت حياً.

- هذا الهدف الذي لا ينبغي أن يكون للإنسان هدف سواه، هو الهدف الأعلى الذي ينبغي أن تندرج تحته كل الأهداف الصغيرة في الحياة، وهو الذي ينبغي أن نرسم حياتنا ونخطط لها وننظمها على ضوئه، نترك أي شيء يتعارض مع هذا الهدف أو يؤخر وصولنا إليه.

لو أن الطالب الذي يدرس الطب أحبه بعض زملائه وصاروا يزورونه كثيراً بحيث بدأ ذلك يؤثر على دراسته، ماذا يصنع؟ هل يرضى بذلك حتى لو كان سبباً في رسوبه أو نقص علاماته أو قلة معلوماته، ولو رضى بذلك ونجح بعلامات متدنية ومعلومات قليلة؛ كم سيكون أثر ذلك سيئاً في عمله الطبي، كم سيأتيه من مريض فلا يحسن أن يعالجه لقلة معلوماته وعدم فهمه وحفظه لما تحتاجه مهنته.

ولو أن المزارع شغله بعض الناس بزيارات وهو، كم سيُتج؟ وكم سيندم على قلة محصوله الذي ينتجه في الموسم؟ أم يكون عاقلاً فيزرع ويعمل بقدر حاجته التي هي هدفه من الزراعة، ثم يجعل ما زاد من وقته للزيارات وغيرها.

ومن يطلب رضوان الله كيف يرضى أن ينشغل بشيء يضيع معه هدفه وتنزل به رتبته عند الرحمن في الجنان؟

- ومن الواجب أن تكون جميع أعمالك وعلاقاتك متوافقة مع الهدف الأسمى لك، ومحققاً له في كل تصرف، وفي كل وقت.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن صَلَائِي وَنُكْحِي وَنَحْيَا وَمَمَافٍ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:

١٦٢].

فمن اهتم بهدف ومقصد فعليه أن يبحث عن وسائله ويمشي بها، ويترك الوسائل التي تضاد الهدف وتحالفه وتنحرف عنه.

- ولقد نبهنا النبي ﷺ إلى أنه لا بد أن يكون للإنسان هدف يسعى إليه ويسدد

نحوه:

قال ﷺ: «سدّدوا وقاربوا»^(١)، والتسديد إنما يكون نحو هدف، والسداد هو الاستقامة، والاستقامة إنما تكون إلى جهة محدّدة وهدف معروف، كالخط المستقيم يتجه إلى جهة معروفة.

فبعد أن تحدّد هدفك تسدّد نحوه وتسعى نحوه وتقصد إليه باستقامة لتصيب الهدف المطلوب، فإذا ضعفت عن إصابة الهدف تماماً فقارب منه ولا تُبعد عنه: «وقاربوا».

والهدف هو تلك الغاية التي يريد الوصول إليها، والغاية هي التي تمثل نهاية الطريق الذي يسير فيه.

- وكما يجب أن يكون الهدف صحيحاً ومعلوماً وواضحاً؛ ينبغي أن يبقى أمام أعيننا، نذكره ولا ننساه، نجعله محور تفكيرنا، فإن بقاء الهدف في ذهن الإنسان وفكره واهتمامه يدفعه إلى العمل والسعي الذي يحقق ذلك الهدف، قال ﷺ: «والقصد القصد تبلغوا»^(٢)، فبقدر ما يجعل الإنسان قصده وهدفه همّاً له، وبقدر ما يسعى نحوه؛ بقدر ما يبلغ المقصود والهدف المنشود.

(١) قال ﷺ: «لن يُنجي أحداً منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة، سدّدوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا»، رواه البخاري في صحيحه رقم ٦٠٩٨ عن أبي هريرة ؓ، وروى مسلم نحوه في صحيحه رقم ٢٨١٦، وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يَشَادَ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ»، وقوله ﷺ: «إِلَّا غَلَبَهُ»: أَي غَلَبَهُ الدِّينُ وَعَجَزَ ذَلِكَ الْمُشَادُّ عَنْ مُقَاوَمَةِ الدِّينِ لِكثَرَةِ طُرُقِهِ، «وَالْغَدْوَةُ»: سَيْرٌ أَوَّلَ النَّهَارِ، «وَالرَّوْحَةُ»: آخِرُ النَّهَارِ، «وَالدَّلْجَةُ»: آخِرُ اللَّيْلِ، وَمَعْنَاهُ: اسْتَعِينُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْأَعْمَالِ فِي وَقْتِ نَشَاطِكُمْ، وَفَرَاغِ قُلُوبِكُمْ، بِحَيْثُ تَسْتَلْذِنُونَ الْعِبَادَةَ وَلَا تَسْأَلُونَ مَقْصُودَكُمْ، كَمَا أَنَّ الْمُسَافِرَ الْحَاقِظَ يَسِيرُ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ وَيَسْتَرِيحُ هُوَ وَدَابَّتُهُ فِي غَيْرِهَا، فَيَصِلُ الْمَقْصُودَ بِغَيْرِ تَعَبٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم، وهو جزء من الحديث الذي ذكرنا بعضه قبل قليل: «سدّدوا وقاربوا».

ومن معاني «القصْد»: الاعتدال، ولا يكون الإنسان معتدلاً إلا إذا كان سائراً على الخط الذي يوصل إلى الهدف تماماً، وإلا كان منحرفاً مائلاً إلى أحد طرفي القصْد، إما إلى التفريط أو إلى الإفراط.

- وإذا جهل الإنسان هدفه أو غفل عنه أو نسيه؛ ينشغل بما لا ينفع أو يتخبط وينحرف، كما وصف الله من انحرف عن الحق بقوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [إبراهيم: ١٣]. والإنسان الذي عرف أين هو الخير والحق اللذان يحققان السعادة له، وعرف أن طهارة نفسه وتزكيتها هي التي تعطيه تلك السعادة في الدنيا والآخرة، فلا بد أن يرغب في تزكية نفسه وإرضاء ربه، ويجتهد في طاعة ربه ويجاهد، ويترك اللهو والعصيان والشواغل عن مقصده وهدفه العظيم.

ومن عرف أهدافه العالية وكانت واضحة عنده وعرف أن تزكية النفس تحققها له؛ فإنه يبقى متذكراً لها محباً لها منجذباً نحوها، وما لم يعرف الإنسان قيمة التزكية وأهدافها العالية؛ فإن حرصه عليها وسيره إليها سيكون ضعيفاً، أو لا يلبث أن ينقطع، فإن وضوح الهدف والمقصد وجماله في عقل الإنسان وقلبه؛ هو الذي يعطيه الثبات والرغبة في متابعة الطريق إلى نهايته، التي تكون بموت الإنسان.

فالهدف الذي ترسمه لنفسك هو الذي يُوجِدُ الهمة والعمل والاجتهاد، كالتالِب الذي جعل همّه أن ينجح ويتفوق؛ يدفعه ذلك إلى الجِد والاجتهاد وتحمل السهر والدراسة ويصرفه ذلك عن شهواته وكثير من حظوظ نفسه، والتالِب الذي لا يهتمُّ نجاحه أو رسوبه؛ لا يبالي إن درَس أم لم يدرُس، ينشغل بشهواته ويلهو ويضيع وقته.

- وكما نهى النبي ﷺ على أن يكون كل عمل من أعمالنا لله تعالى، كذلك نهىنا أن نجعل حياتنا كلها لله، فقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها؛ فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١).

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

فالحديث ينبهنا إلى أهمية النية الكبرى في حياة الإنسان، تلك النية التي تشمل حياة الإنسان كلها، فلا يتحرك إلى شيء إلا إذا كان ضمن إطار هذه النية الكبرى، وهي التي تسمى مقصد الحياة وهدفها، وهي التي سماها بالهجرة إلى الله ورسوله ﷺ.

فالذي نسير إليه ونهاجر إليه هو الله عز وجل ورسوله ﷺ، فنبهنا بهذا إلى الهدف الذي نقصده في حياتنا، والذي ينفعنا.

والذي يهاجر إلى بلد أو مكان فإنه إما أن يكون راغباً في البلد نفسه أو ببعض ما يجد فيه، ويكون هذا الذي يرغب به محبوباً عنده، وكذلك الهجرة إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ لا تتحقق ولا يرغب بها الإنسان ما لم يكن محباً لله ولرسوله ولما عندهما.

وهجرة العبد إلى ربه سبحانه ليست هجرة مكان أو مسافة، وإنما هي هجرة إقبال وحب وطاعة وطلب وعبودية وذلة، وكذلك كان حال أنبياء الله في إقبالهم على الله كأنهم مهاجرون إليه، فبهذا وصف الله تعالى نبيه الكريم إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩].

والهجرة إلى النبي ﷺ - التي ذكرها الحديث - هي هجرة محبة وطاعة واتباع. والله تعالى يأمرنا جميعاً بأن نكون مهاجرين إليه، بل يأمرنا أن تكون هجرتنا سريعة وكأننا نفر من عدو، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذريات: ٥٠].

والله تعالى ندبنا إلى الأحسن والأسرع: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥]، ﴿الَّذِينَ يَسْمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَنْبِيَاءِ﴾ [الزمر: ١٨]، وندبنا سبحانه إلى طلب المسارعة في التوبة إليه والإقبال عليه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾

[آل عمران: ١٣٣]، ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

وإذا كان هدفك الذي تحققه في الدنيا هو العبودية بها فيها من طاعة وترك معصية ومصارعة إلى الخيرات؛ فإن الهدف والنتيجة والمقصد الذي يتحصل من هذه العبودية هو هدفك الأخروي وهو الجنة ورضوان الله عنك.

فكل ما يفعله المسلم ينبغي أن يكون مريداً به وجه الله ورضوانه، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ حَمَّذُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى يصف حال المؤمن الذي جعل هدفه رضوان الله فهو يبحث عما يرضي الله ويتبع طريق ذلك: ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، واتباع رضوان الله هو سبب في هداية الله للعبد: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

- والجنة هدف لمن يزكي نفسه، فهي جزاؤه على تزكيته لنفسه، كما قال تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ [طه: ٧٦].

والجنة فيها جنان متعددة وفيها درجات، فيها من يزحزح عن النار، وفيها من يكون في الفردوس الأعلى، وفيها من يكون في الغرفات آمناً، وفيها من يكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وفيها من يكون في جنات عدن، وفيها من يكون له جنتان، ومن دونها لغيرهم جنتان، فانظر أي الجنان تطلب، وكن حريصاً على الأعلى والأكثر

نعيماً وقرباً من الله، من خلال التزامك بأمر الله ما استطعت، قال تعالى: ﴿فَأَنفِقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وانظر إلى أبي بكر رضي الله عنه كيف كان يطمع في أعلى النعيم في الجنة، وكان يسعى إليه ويعمل لأجله، فنال ذلك، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْفَقَ رَوْحَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يَا أَيُّ أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»^(١).

- وإذا كانت الجنة هدفاً للمسلم، وهي نِعَمَ الهدف والمقصد، فريضان الله أيضاً هدف، وهو أعظم وأكبر من الجنة، كما بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فاطلب الرضوان لتتاله في الدنيا قبل الآخرة لتكون كمن قال الله فيهم: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ومن قَصَّر في طلب الرضوان قد يدخل الجنة ولم يستحق بعد رضوان الله، لكن الله يدخله الجنة برحمته ويحل عليه الرضوان في الجنة.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، يَقُولُونَ: لَبِيكَ رَبَّنَا وَسَعْدِيكَ، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: أَلَا أُعْطِيكُمْ

(١) رواه البخاري رقم ١٧٩٨ ومسلم رقم ١٠٢٧ عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، وقد جاءت بعض الروايات بصيغة الجزم: «وَأَنْتَ مِنْهُمْ».

أفضل من ذلك؟ قالوا: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(١).

قال تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]^(٢).

- ولما كانت الدنيا وشهواتها هي أعظم الأسباب التي تجعل الإنسان يغفل أو يحيد أو ينحرف عن مقصده وهدفه الذي خلقه الله له؛ فلا بد من بيان حقيقة الدنيا والتنبيه على عدم الغفلة بها عن الله وأمره وآخرته، وهذا ما نبينه في الموضوع الآتي:

(١) رواه البخاري رقم ٦٥٤٩ ورقم ٧٥١٨ ومسلم رقم ٢٨٢٩.

(٢) من المفسرين من قال: إن الرضا صفة للنفس تنالها في الدنيا فترجع بهذه الصفة إلى الله ﴿ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ وتكون عندئذ من عباد الله حقاً ﴿فادخلي في عبادي﴾، ثم يكون مآل النفس في الآخرة إلى الجنة: ﴿وادخلي جنتي﴾، وقال أكثر المفسرين: إن الملائكة تحاطب النفس المطمئنة بهذه الآية يوم القيامة، واصفة النفس بأنها ترضى لما وجدت من نعيم، وتكون مرضية من ربها لما بذلت من اجتهاد حتى اطمأنت، انظر: تفسير الطبري: ج ٣٠، ص ١٨٩-١٩٢.

المبحث الرابع

ما هذه الحياة التي نعيشها؟ وهل تصلح هدفاً؟ وكيف نستعملها؟

من أهم الحقائق التي عرفنا الله بها والتي يجب أن يُدركها الإنسان عن الحياة الدنيا:

١. قيمة الدنيا وهوائها، قال ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(١)، وقال سبحانه: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَهَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدًا﴾ [الكهف: ٤٥]. ومن علم هوان الدنيا وحقارتها فإنها لا يستعظمها ولا ما فيها من شهوات ولا يتعلق بها، بل يزهّد بها زاد عن حاجته.

والدنيا هينة بذاتها، فكيف إذا قارنتها بنعيم الآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَا مَنَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

٢. وأنها وسيلة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك^(٢)، والغريب المسافر لا يحمل أكثر من حاجته، والدنيا لتأخذ منها لما بعد موتك، فإذا فهمت أن الدنيا وسيلة، فاتخذها مطية لغايتها، وغاية الدنيا الآخرة،

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٣٢٠ عن سهل بن سعد، وقال الترمذي: حديث صحيح غريب من هذا الوجه.

(٢) أخرجه البخاري رقم ٦٠٥٣.

فتأخذ من الدنيا حاجتك، وتجعل ما يزيد عن حاجتك نافعاً لك في آخرتك، ولا تجعل من الدنيا شاغلاً عما أوجب الله وفرض عليك مما ينفعك في غايته ومالك ومرجعك، ولا تأخذ من شهوات الدنيا التي حرمها الله عليك، فتكون الدنيا سبباً في طغيانك وعذابك.

٣. وأنها محل اختبار وابتلاء، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فالله جعل في الدنيا زينة وجمالاً وخيراً وشرّاً ليمتحن بها خلقه، فلا تتخذه من شهوات وزينة، وإنما تنبته إلى أنها موضوعة أمامك لتختبر؛ هل تميل إليه وتزيد منها، أو تأخذ قدر حاجتك ويكون ميلك ورغبتك إلى ما يستأهل أن ترغب به؛ الآخرة ورضوان الله.

٤. وأنها إلى فناء وانتهاء وانتقال عنها، ففي أي لحظة يمكن أن ترحل عنها، قال تعالى: ﴿وإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨]، وقال سبحانه: ﴿وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُتْنُ﴾ [النجم: ٤٢]، وقال ﷺ: «ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهِا أَتَيْنَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، فإذا كانت الدنيا وزينتها وشهواتها إلى انتهاء؛ فكيف تبالغ في الاستزادة منها، وكيف لا تستعد للدار التي أنت راحل إليها، وكيف لا تتخذ من الدنيا محلاً للعمل لما ينفعك في آخرتك التي ستنتقل إليها؟

(١) حديث صحيح، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، أخرجه أحمد في مسنده رقم ٣٧٠٩ والترمذي رقم

٢٣٧٧ وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في سننه ٤١٠٩، وابن حبان بنحوه في صحيحه ٦٣٥٢،

وغيرهم..

إن إدراك هذه الحقائق عن الدنيا هو الذي يحمي الإنسان من أن يتخذها هدفاً ومقصداً، فتشغله عن مقصده الحق الذي خُلق له.

إنَّ أكثرَ ما يحرف الناس عن هدفهم الصحيح: الدنيا، بما فيها من زينة وشهوات، إذ يجعلونها الشغل الشاغل والمقصد الأول، فكيف يجب أن ننظر إلى الدنيا؟ وكيف يجب أن نتعامل معها؟

- حينما نتكلم عن الدنيا فإننا نقصد تلك المشتريات والملاذات التي توجد في الدنيا، فإننا نجد أن الله تعالى سبها شهوات وسبها دنيا حيث قال: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ [آل عمران: ١٤]، فقلوه: ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْحَرْثِ﴾؛ بيان لأنواع الشهوات، ثم قال عنها ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

- هذه الشهوات وهذه الدنيا زينها الله تعالى ابتلاء واختباراً، لينظر من يميل إلى هذه الأمور ويجعلها مقصده في الحياة، ومن يترفع عنها ويجعل الحلال منها وسيلة للقصود الذي خلق من أجله، وما زين من هذه الشهوات ليس كله زينة، إنما هو - في الحقيقة - متاع الغرور ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، والشيطان يبذل جهده في خداع الناس بها وتزيينها لهم، قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَزَنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

وليس شيء من هذه الأمور زينة، إلا القدر الذي شرع الله للإنسان أن يأخذه منها، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وحتى هذه الزينة مقصودها الأول الابتلاء بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَن يَبْلُوهَا إِنَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

- إن ميل الإنسان ورغبته في شهوة هو الذي يشكل الدافع له إلى ارتكابها، وإن زينة المال والعمارات هي التي تشكل الدافع له والباعث إلى اقتنائها والتعب في تحصيلها والانشغال بها.

والدنيا بكل ما فيها إنما هي مطية ووسيلة إلى الآخرة، لا تكون هدفاً ولا مقصداً بذاتها، لأنها غرور، مآلها إلى الفناء والانتقال عنها، فلا تصلح إلا وسيلة، والوسيلة لا يؤخذ منها إلا بقدر الحاجة إلى الهدف.

ومن جعل الدنيا وشهواتها مقصداً فمصييره النار والخسران، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦]، وقال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

- ومثل من وقف مع زينة الدنيا وجعلها مقصداً وهدفاً، ونسي ربه الذي خلقه، ونسي عبوديته التي خلق لها ووظف فيها، ونسي آخرته التي سيصير إليها ثم يبقى فيها، مثله: كمثل رجل أراد أن يصل موضعاً أو مكاناً فكان هذا المكان مقصده، فاحتاج إلى ركوبة ليركب عليها ويسير بها، فاشترى حمراً أو سيارة أو طائرة، لتكون وسيلته، فأعجب بركوبته التي اشتراها وجعل يزينها ويعيش معها ولها، ونسي مقصده الذي لأجله اشتراها، فهل هذا عاقل؟

كذلك ضرب الله مثلاً لمن أعجب بالدنيا، ونسي اتخاذها وسيلة لعمارة آخرته؛ ضرب له مثلاً بالنبات، يُعَجَّب المرء بخضرتة وثمراته، فلا يلبث أن يصفّر ويزول، وكذلك زخرف الدنيا وزينتها مآلها الفناء، ولا يكون الإعداد والتعمير للفاي، وإنما الإعداد والبناء لمحل البقاء، قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْبٍ أَحْبَبَ الْكُفَّارَ بَنَانُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُمْ صَفْرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

هذه الدنيا لما تزينت في نظر محبيها والعاملين لها طلبوها وعاشوا لها وجعلوها مقصدهم، وأنت أيها العاقل، الباحث عن خير نفسك، الراغب في تركية نفسك، عليك أن تنظر بفكر متجرد أين الزينة الحقيقية؟ وأين الخير والحق الذي ينبغي أن تجعله هدفك ومحوبك ومقصداً في حياتك؟ فلا يكون عندك زينٌ إلا ما هو زين حقيقةً.

أليست الزينة الحقيقية هي الإيمان وما يتفرع عنه، مما خلقنا الله له من عبادة وتركية، فهذه هي التي تعطي السعادة الحقيقية في الحياة الدنيا ثم في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

- إن المباح من الزينة الدنيوية قد يصير في حالات محرماً، فلا يعود زينة في ميزان الله، إذ إن المباح من الدنيا لا يجوز أن يكون على حساب الفرائض والواجبات، فإذا شغلته الدنيا المباحة عن الواجبات فقد أثم، وإذا أنفق المال الذي يجب بذله في الواجبات؛ أنفقه في المباحات كان ذلك حراماً واعتداءً، وليس من المال الحلال المباح ولا من الزينة المشروعة، أما إذا ندب إلى إنفاق فاستعمل المال في المباح فإنه لا يأثم، لكنه يكون قد فوت على نفسه خيراً وأجرأ، وإذا انشغل بأعمال مباحة دنيوية ليست من حاجاته الضرورية ويمكنه أن يستغني عنها؛ انشغل بها عن عبادات من النوافل والمندوبات؛ كذلك لا يكون مسيئاً ولا آثماً، ولكنه يكون قد فوت على نفسه خيراً، خسرته وانشغل عنه بما لا ينفعه في الآخرة، ونفعه في الدنيا قليل ووهم بالنسبة لما فوّته على نفسه بتركه للنوافل من نفع الآخرة وأجرها ولذاتها ونعيمها.

- ومن علم هوان الدنيا عند الله خالقها، وأنها لا تزن جناح بعوضة، وأنها أهون من سحلة^(١) ميتة لا يُتفَع بها؛ فكيف لا يزهد في هذه الدنيا، وكيف يتعلق بها ويضيع

(١) هي الغنمة الصغيرة حديثة الولادة.

بسببها الحياة الحقيقة ذات القيمة، قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فالله تعالى وصف الآخرة بأنها هي الحيوان أي الحياة الحقيقية، فالدنيا كأنها لحظة في جنب الآخرة، فهي ليست بحياة حقيقية، يعتني بها الإنسان ويتركها ولا يعتني بالحياة الآخرة التي يدوم فيها النعيم أو العذاب، ولأجل ذلك قال النبي ﷺ عن الدنيا: «ما لي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»^(١)، فالذي حصل من الدنيا مالا كثيراً وقوة ثم صرفها في الدنيا ولم يستعملها فيما ينفعه في الآخرة، فمثله كمثل من سافر وعمل وحصل مالا كثيراً في جاء تحت شجرة فأنفق المال تحتها وصرفه ولم يترك منه شيئاً، ثم رجع إلى أهله، وليس معه شيء، هذا مثال من يأتي الآخرة وليس معه من الأعمال الصالحة ما يؤهله لدخول الجنة.

والله تعالى إنما خلق الدنيا بما فيها من زينة وحياة وموت للابتلاء، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوةَ لِنَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ومن علم أن الدنيا محل للاختبار والابتلاء، وليست محلاً للجزاء؛ كيف يتعلق بها؟ وكيف لا يستعملها للنجاح في الاختبار؟ وكيف لا يتخذها وسيلة يُحسن فيها العمل للغاية الأخروية؟ وكيف لا يقتصر منها على قدر الحاجة؟

- كم فينا من يعيش في الدنيا وكأنها هي الهدف، فإن زاد من وقته جعله لربه وآخرفته ودعوته، والأصل العكس، وهو أن يجعل رضوان ربه وآخرفته ودعوته هي الأهداف التي يعيش لها، ويأخذ من الدنيا بقدر ما يحقق هذه الأهداف، وبما لا يناقضها.

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد في مسنده رقم ٣٧٠٩، والترمذي رقم ٢٣٧٧ وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في سننه ٤١٠٩، وابن حبان بنحوه في صحيحه ٦٣٥٢، وغيرهم.

فإن كنت صادقاً مع نفسك؛ فاجعل تحقيق هدفك الصحيح هو الموجه لك في حياتك وأوقاتك وأعمالك، وفي اختيار علمك ووظيفتك وبلدك وسكنك وزوجتك وأصحابك، ولا تجعل عملك والواقع يفرض عليك خلاف هدفك، واغتنم الواقع لتحقيق هدفك ما استطعت، فهذا دليل الصدق في قناعتك بقيمة هدفك ومقصدك، وهذا دليل معرفتك بحقيقة الدنيا، وهذا سبيل نجاحك في حياتك.

- ومن فُكّر فيما ذكرنا عن الحياة الدنيا، وأدرك هذه الحقائق؛ فقد خرج من أهم أسباب الغفلة، فلا شك أن من وعى ذلك وتذكره مرة بعد مرة؛ لا شك أنه يقطع حرصه على الدنيا، ليتوجه إلى الآخرة، فيستيقظ ضميره ويستعمل فكره، ويوجه دنياه إلى نفعه الحقيقي في الآخرة عند الله، فيتجنب بعد ذلك أن يضيع أوقاته فيما لا ينفعه في الآخرة، ويتبته إلى نفسه وأعماله وأمواله وما أعطاه الله؛ فيوجهها إلى الآخرة التي سيرحل إليها، ليجد جزاء أعماله فيها.

ولما كانت الدنيا طريقاً إلى الآخرة، ووسيلةً إلى إعمارها، فلا بد أن نتعرف على الآخرة التي سنصير إليها، ولا بد أن نعرف ما الذي ينفعنا فيها، لتتعامل مع الدنيا على ضوء ذلك، بيان ذلك في الموضوع الآتي:

المبحث الخامس

ماذا بعد هذه الدنيا؟ إلى أين المآل والمرجع؟ ما هو اليوم الآخر بعد يوم الدنيا؟

من أهم الحقائق التي يجب أن يعرفها الإنسان ويؤمن بها؛ حقيقة ثبوت اليوم الآخر، وما فيه من أحداث وحساب، ونعيم وعذاب، والإيمان بهذه الحقائق لها عظيم الأثر في تركية النفوس.

فمن اعتقد بأن الجنة حق وعرف أوصافها؛ حصلت في نفسه الرغبة في العمل لتحصيلها، ومن اعتقد بأن النار حق وعرف أوصافها؛ حصلت في نفسه الخشية والرهبة منها والحذر من المعاصي التي توصل إليها، وما لم توجد رغبة في الجنة وخشية من النار فلا ينتفع الإنسان من التذكير والإنذار، قال تعالى: ﴿لَئِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا * كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا لِرَبِّلَهُنَّ إِلَّا عَاشِيَةً أَوْ ضُحَّهَا﴾ [النازعات: ٤٥-٤٦].

كل الناس يرون أن حياتهم ودنياهم نهاية ينتهون إليها، وموتاً يفاجئهم: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

ومع علم الناس بذلك فأكثرهم غافلون، فأحدنا لا يفكر في مآله ومرجعه ونهايته وموته وما بعد موته: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

والإنسان العاقل يتساءل: هل هذا الموت هو نهاية كل شيء؟ هل يمكن أن تكون هذه الدنيا هي كل شيء؟ يفعل فيها الإنسان ما يشاء، ويظلم الخلق بعضهم بعضاً، ثم ينتهي الأمر؛ ولا يُسأل أحد عن فعله، ولا يعاقب المفسد على ظلمه وجرائمه، ولا يجازى المحسن على إحسانه؟

إن حاكماً من حكام الدنيا لو ترك الناس يتظالمون ولم يعدل بينهم - وهو يقدر على أن يعدل بينهم - لكان محل ذمّ واتهام، فكيف بالخالق المالك العدل الحكيم سبحانه، أترك حياة الخلائق عبثاً وهو؟ ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

أليس من الطبيعي أن يعدل بين الخلائق ويحكم بينهم؟ ﴿اللَّهُ يُخَكِّمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٩].

وقد شاء الله سبحانه أن يجعل الدنيا محلّ العمل والاختبار والابتلاء، وأن يجعل الآخرة محلّ الجزاء، وقد أخبرنا الله بأنه جعل آخرة يحاسب فيها خلقه ويجازيهم فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [ابراهيم: ٥١]، وقال عز وجل: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

أمن العدل أن يسوّى بين المحسن والظالم والمصلح والمفسد؟ ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]، ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُتْلِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِّنْجَاهُمْ وَمَعَادُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

إن الله تعالى وحده هو القادر على معرفة أعمال الخلق جميعاً وخفايا قلوبهم وصدورهم ونياتهم؟

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿لَا تَخَفْنَ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

وهو وحده القادر على إقامة العدل الكامل بين الخلق، لأنه القادر على تمييز الأعمال ووزنها وزناً صحيحاً عادلاً دقيقاً؟

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ولا يستطيع غير الله سبحانه وزن أعمالهم حقيقة.

والله عز وجل وحده هو القادر على خلق محل الثواب ومحل العقاب، إذ لا خالق سواه.

وهو القادر على إيقاف الخلق جميعاً وحسابهم وإنزال الثواب أو العقاب الذي يستحقونه، ولا يقدر غيره على إمساك الخلق، كما لا يستطيع غيره أن يتحكم بهم جميعاً ويسوقهم، لينزل العقاب بأهله، وليقدم الثواب لأهله، فلا مفر لأحد منه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ * يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ، قَوْلًا * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عِلْمًا * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١٠٨-١١١].

أيجب المفسدون أنهم يفرون من الله، أيجسبون أنه لا يقدر عليهم؟ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِهُنَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤].

كلا، فإن طريق الجميع إلى الموت وما بعده:

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالْشَّهَادَةُ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

ولما كانت الدنيا هي الطريق إلى الآخرة، فما هي الآخرة وما هي الجنة التي نسعى إليها وما هي النار التي نحذرها، وكيف نتقل إلى الآخرة؟

- ما الذي يكون بعد الموت^(١):

يأتيك الموت فتنتقل إلى عالم آخر، ففي أول وهلة وفي أول لحظة بعد انتقالك، تحدث نفسك: ما الذي أقبلتُ عليه؟ وما الذي ينتظرني؟ تحس مباشرة بأن ما أمامك هو جزاء أعمالك التي قدمتها في دنياك.

هلا تخيلت ليها الإنسان هذه اللحظة التي ستأتيك، هل تخيلت نفسك دخلت القبر ووحشته ووحده، وترجو أن تعود، لتُعدَّ - من جديد - لهذا اللقاء ولهذا القبر وما بعده.

لا تنتظر أن تأتيك هذه اللحظة وأنت على عمل غير صالح، وأنت على حال غير مرضي، ولا منجي، أعد لهذا اللقاء ولتلك الأحوال وما بعدها، عسى أن تكون من الفائزين.

يحملك الناس بعد موتك، يغسلونك، يصلون عليك، يدخلونك القبر، ويغلقون عليك، يأتيك الملكان منكر ونكير، في هيئتهما المهيبة، يسألانك: من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟ وليس الجواب جواب لسانك، وإنما الجواب جواب حالك وعملك وإيمانك، فإن صح إيمانك وحسن عملك وزكى حالك؛ كان الجواب سهلاً يسيراً، وإلا غاب الجواب عن عقلك وقلبك.

فيا نعم ما أنت مُقبل عليه إن أحسنت الجواب، ويا بشس ما أنت مقبل عليه إن ضاع الجواب.

فإما نعيم من الجنة يروحك، وإما عذاب من النار يحرقك، أو تكون كالنائم، حتى إذا جاء يوم الدين قلت: لبثت يوماً أو بعض يوم.

(١) وهذا الموضوع وبيانه وتفصيلاته وأدلته من موضوعات العقائد، لكن يحسن أن نُذكر أنفسنا والقارئ ببعض ذلك مختصراً، ليكون عوناً لنا على تركية نفوسنا، مع التنبيه إلى أن تفصيلات اليوم الآخر لا تُعرَف إلا بالوحي، ومن واجبتنا أن نقصر في معرفة ذلك على ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة، دون ما ورد في الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

حتى إذا نفخ في الصور، ليقوم العباد إلى ربهم، فيقفون في المحشر ينتظرون الصحف والحساب، فإما في هول^(١) وحرّ وشمس قريبة^(٢) وكرب عظيم وطول انتظار، وإما في ظل عرش الرحمن في الأمان والاطمئنان تَمْضِي الأوقات وكأنها لحظات.

فما أعظمه من موقف وأنت تنتظر كتابك؛ أتأخذه بيمينك فتطير فرحاً، أو تأخذه بشمالك أو وراء ظهرك، فيشتد عذابك، بدءاً بإنكارك على نفسك، وندمك على جهلك وغفلتك أو إساءتك وإعراضك، ويبدأ العذاب النفسي قبل الحسي، بمعرفتك البؤس العظيم والعذاب الشديد الذي ستقيم فيه.

تذكر هذا الموقف، عند كل عمل، وتذكر أن ما في كتابك هو عملك، الذي سَجَلْتَهُ الملائكة لك وأحصته عليك، ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجنّة: ٢٩]، فاعمل ما تحب أن تراه في كتابك.

وما أجلّه من موقف؛ وأنت تقف بين يدي رب العالمين، الإله العظيم ذي الجلال والإكرام، قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُخَشِّرُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَهْمُهُمْ ذَلِكَ»، وفي رواية: «الْأَمْرُ أَهَمُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ» أخرجه البخاري ومسلم، وقوله: «غُرْلًا»: «الْغُرْلُ جَمْعُ الْأَغْرَلِ وَهُوَ الْأَقْلَفُ وَالْغُرْلَةُ الْقُلْفَةُ». قاله ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث ج ٣، ص ٣٦٢. والأقلف: من لم يختن. انظر: ابن منظور، لسان العرب ج ٩، ص ٢٩٠.

(٢) عن المقداد عليه السلام قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُدْنِي الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ» قَالَ الْمَقْدَادُ: فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا يَغْنِي بِالْمِيلِ، أَسَافَةَ الْأَرْضِ أَمِ الْمِيلِ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا» وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ، رواه مسلم.

تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ^(١).

فبم يجب أهل الكفر عن كفرهم، وهم يقفون عند الإله والرب الذي كفروا به، وهم عنه محجوبون يومئذ؛ عقوبة كفرانهم في الدنيا^(٢).

وبم يدافع أهل المعاصي عن ظلمهم وسيئاتهم ومعاصيهم وسوء أخلاقهم وفاحش أقوالهم، وبم يعتذر المؤمنون الذي فرطت منهم بعض الهفوات والذنوب عن ذنوبهم وهفواتهم.

تخيل هذا الموقف، وكلما أردت أن تذب ذنباً، انظر إلى موقفك بين يدي الله، وهو يسألك عن ذنوبك على مرأى الخلائق جميعاً، وأنت اليوم تستحي من الذنب، وتستتر حتى لا يراك أحد من الخلق، وإذا بك هناك ربما تُفضح أمام الناس جميعاً، ثم تخيل أنه سائلك: تستحي من خلقي، وهم لا يملكون نفعاً ولا ضرراً ولا ثواباً ولا عقاباً، وهم لم يخلقوك ولم يملكوك؟ ولا تستحي من الله، وهو خلقك وأنعم عليك، وهو الذي يقدر على نفعك أو ضررك ويملك عقابك أو ثوابك؟ تستحي من أمثالك، ولا تستحي من ربك العظيم وإلهك الكريم؟

فاعمل أيها الإنسان ما يحبه منك مولاك الله سبحانه، واترك ما لا يرضيه، واترك ما تكره أن يسألك عنه أو يفضحك فيه، فإن هيبة الموقف بين يدي شرطي أو قاضي - وهو يسألك عن جُرم - عظيمة، فكيف بهيبة الموقف بين يدي رب العالمين، يسألنا عن ذنوب كثيرات؟ لا بد أن لذلك هيبة ورهبة قد نعجز عن تخيلها وتصورها.

قال سبحانه: ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُوءَ رَبَّكُمْ إِنَّا زُلْزَلَةُ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ

(١) أخرجه البخاري ومسلم، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥-١٦].

عَذَابُ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿الحج: ١-٢﴾، وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَلْبِيهِ * وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

لا تظن أنك تجد مفراً، ﴿فَإِذَا رَاقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ إِنَّنِ الْفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُنْتَقَرُ * يُنْبِئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ٧-١٣]، ولا تظن أنك تستطيع أن تخادع الله، ولا تظن أنك تجد عذراً بين يدي الله، ولا تظن أنك تجد من يشهد لك شهادة تخالف الحقيقة، بل جسدك يشهد عليك بالحق، والأرض تشهد عليك: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وقرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، ثم قال: «أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَىٰ كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا، تَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا»^(١).

أيها الإنسان.. أيها العبد..

لقد هيا الله تعالى لك جنة، فهي محل لرحمته وثوابه، وفيها نعيمه وفضله، وعرفك بها لتكون لها طالباً بإيمانك وأعمالك الصالحات، فإذا طلبتها فإنما تطلب رحمة الله، وإذا رغبت بها فليس لك إلا أن ترجوها من الله مالِكها ومعطيها، فكن مؤمناً به مطيعاً له متقياً لغضبه؛ حتى يكرمك بها، ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وأعد ناراً، فهي محل غضبه ونقمته، وفيها عذابه وجحيمه، وأخبرك عنها لتتقيها وتحذرها، بمجانبتك الكفر والعصيان، فإذا خفت منها ومما يوصل إليها؛ فإنما تخاف من غضب الله ونقمته، وإذا حذرت منها، فاحذر ممن يقدر على أن يعاقبك فيها، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَإِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فاعلم أنك حينما تعصيه

(١) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: حديث حسن.

كأنها تطلب النار، وكأنها تدعي القدرة على عذابها: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الصَّلَاةَ بِالْهَدْيِ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]، فاحذر أن تكون من الكافرين أو العاصين، فإنما النار لهما ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، ﴿بِكُلِّ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحْطَتْ بِهِ، خَطِئْتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

- فما هي أوصاف الجنة وماذا أعد الله لك فيها؟

فيها صفاء النفوس وسلامة الصدور وراحة الأجساد، ودوام النعيم، وحسن الاستقبال والإكرام:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا وَسَلِّمْ ءَامِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٥-٤٨].

لا خوف فيها، فيها السعادة بكل أشكالها، فيها كل ما تشتهي، تطلبه فيأتيك، لا يحال بينك وبينه:

﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ * وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨-٧٣].

فيها اللباس الحسن والزوجة الحسنة والمنظر الأحسن:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِينَ * لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَّعَهُمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ * ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥١-٥٧].

تخيّل الشجر وضخامته، إذ تمشي تحت الشجرة مسيرة مائة عام^(١)، حاول أن تتخيل جمال منظرها وجمال ثمارها وجمال رائحتها، وتذكر أن الله خلق في الجنة أموراً جميلة أخرى، لم نعرف مثلها في الدنيا ولا نستطيع تصورها.

تخيّل الحور العين وجمالها، وتذكر أنك حينما تأخذ حظك من النظر المحرم والشهوات المحرمة في الدنيا تحرم نفسك من ذلك النعيم، وشتان بين نعيم مقيم وبين نعيم زائل متكرر.

ومهما تخيلت من شأن الجنة وجمالها فإنها فوق ما تخيلت، فإنك لا تستطيع أن تتخيل إلا مما عرفت ورأيت وسمعت، والجنة فوق ذلك، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَاقرُّوْا إِن شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]»^(٢).

وقال ابن عباس ؓ: «ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء»^(٣)، فكان ما نعرفه عن الجنة هو للتشويق، ففيها أنهار لكنها ليست كأنهار الدنيا، وفيها فواكه ليست كفواكه الدنيا، لا شكلاً ولا طعماً، بل ما يأتيك في الجنة يتغير كل مرة ليكون النعيم متجدداً: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِمَا مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥]، روي عن ابن مسعود ؓ قال: «وأتوا به متشابهاً؛ في اللون والمرأى، وليس يشبه الطعم»^(٤).

(١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّائِبُ الْجَوَادُ الْمُضْمَرَّ السَّرِيعَ مِائَةَ سَنَةٍ مَا يَقْطَعُهَا» أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

(٣) رواه المقدسي، في الأحاديث المختارة ج ١٠، ص ١٦، وانظر: تفسير الطبري: ج ١، ص ١٧٤.

(٤) انظر: تفسير الطبري: ج ١، ص ١٧٣، وروي هذا التفسير عن عدد من الصحابة والتابعين.

هذه الجنة لا كدر فيها ولا تشويش، ولا نهاية لها، قال رسول الله ﷺ: «يُنَادِي مُنَادٍ [أَي إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ]: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا، فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا، فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنَعَمُوا، فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُّمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «يَأْكُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَبُولُونَ، وَلَكِنْ طَعَامُهُمْ ذَلِكَ جُشَاءٌ كَرَشِحِ الْمِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّكْبِيرَ، كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ»^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَذْرِ. ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوَكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً: لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَنْقَلُونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ. أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمْ^(٣) الْأَلْوَةُ^(٤)، أَزْوَاجُهُمُ الْخُورُ الْعَيْنُ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»^(٥)، وفي رواية أخرى: «أَنِيْتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يَرَى مِثْلَ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ، وَلَا تَبَاغُضَ: قُلُوبُهُمْ قَلْبُ رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»^(٦).

وقال رسول الله ﷺ: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ، مَا أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزَلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيَقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ كَيْفَ

(١) رواه مسلم رقم ٢٨٣٧ عن أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَوْلُهُ (تَشْبُوا): أَيِ تَكُونُوا فِي سَنَ الشَّبَابِ وَقَوْتِهِمْ وَجَاهِهِمْ، وَقَوْلُهُ (لَا تَبْأَسُوا): أَنْ لَا يَصْبِيحَكُمُ الْبُؤْسُ وَالشَّدَّةُ وَالسُّوءُ.

(٢) رواه مسلم رقم ٢٨٣٥ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَوْلُهُ: (يَتَغَوَّطُونَ): مِنَ الْغَائِطِ، وَهُوَ قِضَاءُ الْحَاجَةِ وَإِخْرَاجُ الْفَضَلَاتِ، وَقَوْلُهُ: (جُشَاءٌ): هُوَ الرِّيحُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْقَمْرِ عِنْدَ الشُّبُعِ.

(٣) الْمَجَامِرُ: هِيَ الَّتِي يَوْضَعُ فِيهَا الْجَمْرُ لِتُخَرَّ الطَّيِّبُ.

(٤) يَعْنِي: عُودُ الطَّيِّبِ.

(٥) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخْذَاتِهِمْ؟ فَيَقَالَ لَهُ: أَتَرْضِي أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكٍ
مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ
وَمِثْلُهُ، فَيَقُولُ فِي الْحَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا
اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَدَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ:
أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ
أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٌ^(١).

هذه الجنة التي تكتمل فيها معرفة العبد لربه، فيكون ذلك أعظم النعيم، عن
جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَظَرْنَا إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَقَالَ:
«إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عَيْنًا كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»^(٢).

هذه الجنة العظيمة ألا تستأهل منك أن تشمر وتبذل الجهد والنفس والمال
والغالي والنفيس، ألا تستأهل منك أن تتجرد عن شهواتك ومعاصيك التي تحول
بينك وبينها، ألا تستأهل منك أن ترغب فيها وفي الأعمال التي توصلك إليها، «أَلَا إِنَّ
سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»^(٣).

لا تغرنك شهوات الدنيا وما فيها، فما أهون الدنيا في جنب نعيم الجنة: قال
رسول الله ﷺ: «لَقَابُ قَوْسٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرُبُ»^(٤).

هذه الجنة التي تتفاوت فيها المراتب بحسب تفاوت الأعمال في الدنيا، فاختر
لنفسك تكون في أدنى الجنة أم تكون في أعلاها: «أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ» [البقرة: ٦١]، فشمّر همتك لأعلى النعيم فيها قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ
الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأَفُقِ مِنْ

(١) رواه مسلم عن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

(٣) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال: حديث حسن.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(١).

- وما هي أوصاف النار وماذا أعد الله لأهلها فيها؟

قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سُمُورٍ^(٢) وَحِمِيمٍ^(٣) * وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ^(٤) * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ^(٥) * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصْرَفُونَ عَلَى الْلَحْنِ الْعَظِيمِ^(٦) * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أُنِيتُمْ أَفْئِدًا الضَّالُّونَ السَّكَدُونَ * لَأَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زَقُومٍ^(٧) * فَالَّذِينَ مِنْهَا الْبَاطُونَ * فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَرِبُوا شَرِبَ الْهَيْمِ^(٨) * هَذَا نَزَّلْنَاهُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿[الواقعة: ٤١-٥٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نَضَعُ جُلُودَهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَيْبٍ فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَمٌ مِّنْ حَدِيدٍ^(٩) * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ؓ.

(٢) السُمُوم: الريح الشديدة الحرارة، تدخل المسام.

(٣) حميم: ماء بالغ الحرارة.

(٤) يحموم: دخان شديد السواد.

(٥) لا كريم: لا نافع من أذى الحر.

(٦) الحنث العظيم: الشرك.

(٧) زقوم: شجر كريه جداً في النار.

(٨) شرب الهيم: كما تشرب الإبل العطاش التي لا تروى.

(٩) مقامع من حديد: سياط من حديد يجلدون بها.

﴿ فِي جَنَّتِ يَسَاءَ لُونُ * عَنِ الْمُعْجِرِينَ * مَا سَلَكَ كُفْرِي سَقَرُ * قَالُوا لَرَنُكَ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَرَنُكَ نَطْعُمُ الْيَسْكِينِ * وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْحَافِضِينَ * وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ * فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٠-٤٨].

﴿ وَالَّذِينَ يَكْزُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزُرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

ولا يكفيهم عذابهم الجسدي، بل يعذبون نفسياً بما يتحسرون على حياتهم وما عملوا فيها: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ * رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَا ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١٠٨].

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مَُّرِيبٍ ﴾ [سبا: ٥٤].

أَبُوا أَنْ يَذَلُّوا لَلَّهِ فِي الدُّنْيَا بِطَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، فَلَا زِمَتَهُمْ أَشَدُّ الذَّلَّةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ^(١) مَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ أَغْشِيَتْ وَجُوهَهُمْ وَقَطَعَا مِّنَ اللَّيْلِ مَظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٧].

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ يُوَضَّعُ فِي أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لَا هُوَهُنَّ عَذَابًا» ^(٢).

(١) ترهقهم ذلة: أي تغشاهم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر - أو ناب الكافر - مثل أُحُد^(١)، وغلظ جلده: مسيرة ثلاث^(٢)»^(٣).

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فقال: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم، فكيف بمن يكون طعامهم»^(٤).

فاحذر أيها الإنسان أن تعمل عملاً يؤدي بك إلى هذه المهلكة، وإلى ذلك العذاب الأليم المقيم، ولا تنس هذه الحقيقة عندما تعمل عملاً أو تقول قولاً أو تنوي نية أو تفكر في أمر.

اجعل صورة الجنة وصورة النار أمام عينك، والموجه لك في أعمالك، لا تهرب من التفكير في هذه النهاية، ولا تكن من الغافلين عنها: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ * كَانَهُمْ حُرُمٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ^(٥) * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُوفَّى صُحُفًا مُنْشَرَةً * كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُمْ تَذْكَرُونَ﴾ [المدر: ٤٩-٥٤].

تلك الجنة وتلك النار؛ إحداهما مستقرك أيها الإنسان، فتفكر وتأمل في مصيرك، واستعد له، وأكثر من قراءة القرآن فإنه يعرفك بمستقرك ويذكرك به، ويعرفك بما يجب أن تكون عليه.

إليك هذا الحديث الطويل يبين بعض أنواع العذاب التي تصيب أهل المعاصي في الآخرة، في رؤيا رآها رسول الله ﷺ، ورويا الأنبياء حق، عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا»،

(١) أي مثل جبل أُحُد.

(٢) أي مسيرة ثلاثة أيام، أي ما يساوي نحو ثمانين كيلو متراً، فيتعذب بكل هذا الجسد في ضخامته.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) أخرجه الترمذي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: حديث حسن صحيح.

(٥) أي: كأنهم همير يهربون من أسد يلاحقها، وهكذا شأن الغافلين الهاربين من تذكر الآخرة.

قَالَ فَيَقْصُصْ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقْصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانٍ، وَإِثْمَهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِثْمَهُمَا قَالَا لِي انْطَلِقْ. وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَنْلَعُ^(١) رَأْسُهُ فَيَتَهَذُّ الْحَجَرُ هَاهُنَا، فَيَتَّبِعُ الْحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى. قَالَ قُلْتُ لهُمَا: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَانِ، قَالَ: قَالَا لِي: انْطَلِقْ - قَالَ - فَاَنْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِكُلُوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَى وَجْهِهِ فَيَشْرِشُرُ شِدْقَهُ^(٢) إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخَرَهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ - قَالَ وَرَبُّمَا قَالَ أَبُو رَجَاءٍ فَيَسْقُ - قَالَ ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى. قَالَ قُلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَانِ قَالَ قَالَا لِي: انْطَلِقْ. فَاَنْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُورِ - قَالَ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ - فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ - قَالَ - فَاطْلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ هَبٌّ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ صُرُوضًا^(٣) - قَالَ - قُلْتُ لهُمَا مَا هَؤُلَاءِ قَالَ قَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ. قَالَ فَاَنْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى مَهْرٍ - حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ - أَحْمَرٌ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةٌ كَثِيرَةٌ، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ فَيَفْغُرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَّ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا - قَالَ - قُلْتُ لهُمَا مَا هَذَانِ قَالَ قَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ. قَالَ فَاَنْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِهِ الْمَرْأَةَ كَأَكْرَهٍ مَا أَنْتَ رَأَيْتَ رَجُلًا مَرَأَةً، وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحْشُشُهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا - قَالَ - قُلْتُ لهُمَا مَا هَذَا قَالَ قَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ. فَاَنْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ

(١) يكسر.

(٢) جانب فمه.

(٣) أي ضجوا واستغاثوا.

مُعْتَمَةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْرِ الرَّبِّيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرِي الرُّوضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لَا أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طَوْلًا فِي السَّاءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وَلَدَانِ رَأَيْتُهُمْ قَطُ - قَالَ - قُلْتُ لَهُمَا مَا هَذَا مَا هُوَ لَاءٌ قَالَ قَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرِ رَوْضَةً قَطُ أَعْظَمَ مِنْهَا وَلَا أَحْسَنَ. - قَالَ - قَالَا لِي: اِرْقُ فِيهَا. قَالَ فَارْتَقَيْنَا فِيهَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبْنٍ ذَهَبٍ وَلَبْنٍ فِضَّةٍ، فَاتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا فَفُتِحَ لَنَا، فَدَخَلْنَاهَا فَتَلَقَّانَا فِيهَا رِجَالٌ شَطْرُ مَنْ خَلْفَهُمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءِ، وَشَطْرُ كَأَفْبَحَ مَا أَنْتَ رَاءِ - قَالَ - قَالَا لَهُمْ اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ. قَالَ وَإِذَا نَهْرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ الْمُخْضُ فِي الْبَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ - قَالَ - قَالَا لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ. قَالَ فَسَمَا بَصْرِي صُعْدًا، فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ الْبَيْضَاءِ - قَالَ - قَالَا هَذَاكَ مَنْزِلُكَ. قَالَ قُلْتُ لَهُمَا بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ، ذَرَانِي فَأَدْخِلُهُ. قَالَا أَمَّا الْآنَ فَلَا وَأَنْتَ دَاخِلُهُ. قَالَ قُلْتُ لَهُمَا فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مِنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا، فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ قَالَ قَالَا لِي: أَمَّا إِنَّا سَنُخْرِكَ، أَمَّا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُبْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُبَشِّرُ شَرَّ شِدْقِهِ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخَرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ، وَأَمَّا الرَّجُلَانِ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاءُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُورِ فَإِنَّهُمْ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي. وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهْرِ وَيُلْقِمُ الْحَجَرَ، فَإِنَّهُ أَكَلَ الرِّبَا، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيمُ الْمُرَاةُ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يُخَشِّسُهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنٌ جَهَنَّمَ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرُّوضَةِ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ وَأَمَّا الْوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ. قَالَ فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ. وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرُ مِنْهُمْ حَسَنًا وَشَطْرُ مِنْهُمْ قَبِيحًا، فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ»^(١).

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري رقم ٦٦٤٠ عن سمرة بن جندب ؓ.

- فماذا أعددت لما بعد الموت:

إذا عرفنا أنه عما قليل نرحل إلى الآخرة، وعرفنا ما في الآخرة من ثواب أو عقاب، وأنه لا بد يوماً من الرجوع إلى الحاكم العظيم الحكم العدل ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، فماذا أعد أحدنا لذلك اللقاء؟ ماذا أعد ليوم الحساب؟ ماذا سيستقبل؟ نعيماً أم عذاباً؟

هل أعددت للقاء ربك وحسابه نفساً زكية وإيماناً ونية صادقة وعملاً صالحاً: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فلئن كنت أعددت عملاً صالحاً فلتفرحن: ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٩]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنِيبَةُ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَنَقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩].

أم أعددت كفرأ وعملاً سيئاً فتفاجأ بالموت وهوله، وتتحسر وتندم وترجو الرجوع: ﴿حَقًّا إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُون * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ، فَقُولُ بَلِّغْنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِيَّة * وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَّة * بَلِّغْنِيهَا كَأَنِّي الْقَاضِيَّة﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٧].

﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ بَلِّغْنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا * يُنَادِي لِلَّتِي لَمْ أَخِذْ فَلَا تَاخِذِي لِي﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٨].

وتتمنى أن لو كنت تراباً بعد العز والجاه والكبرياء والإعراض الذي كان منك في الدنيا: ﴿إِنَّا أُنْزَلْنَاهُ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ بَلِّغْنِي كُنْتُ رَبًّا﴾ [النبأ: ٤٠].

يومئذ تعرف أن حياتك الحقيقة هي الآخرة، فتندم أن اجتهدت في عمارة الدنيا وأهملت عمارة الآخرة: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِرُ الْإِنْسَانَ وَآنِيَ لَهُ الذِّكْرَى * يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ * وَلَا يُؤْنِقُ وُفْقُهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٣-٢٦].

فها أنت ما زلت هنا في الدنيا، فانتبه واستيقظ، وأعد لها قبل أن تخرج منها، فلا يقبل يومئذ إيمان ولا عمل، ليس إلا الندم والعقاب ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

- وَزَنُ أَعْمَالِكَ فِي الدُّنْيَا بِمِيزَانِ الْآخِرَةِ:

إن أي عمل تعمله في الدنيا إنما تكون قيمته بحسب جزائه يوم القيامة، تلك قيمته الحقيقية، وهذا هو الميزان الذي يجب أن يكون حاضراً في ذهن الإنسان عندما يقوم بأي عمل، ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨].

فلئن تعبت كثيراً في عمارة قصر وبذلت فيه كثيراً من مالك ووقتك، ثم مُت وتركت وراءك، ما تكون قيمته في الآخرة؟ إلا أن تحاسب على تضييع وقتك، وانشغالك عن طاعتك، وإسرافك في مالك، بدل أن تبذله في ما أوجب الله عليك أو ندبك إليه.

ولئن سكنت بيتاً متواضعاً وبذلت مالك في إطعام جائع أو كسوة عارٍ أو في طلب علم أو في دعوة إلى دين الله، وبذلت جهدك في صلاتك وصيامك وجهادك وعلمك وأنواع الطاعة؛ فما أعظم قيمتها عند الله، وما أعظم ثوابها، وما خسرت من دنياك شيئاً، إذ لا مقارنة بين الدنيا التي تنتهي وبين الآخرة التي لا انتهاء لها ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

ومهما أصابك من تعب وضنك ومشقة، ومهما بذلت من جهد، إذا كان قد طلبه الله منك، فهو ذو قيمة في الآخرة عظيمة، فيبقى الأجر العظيم والنعيم المقيم، وتنتهي الأتعاب وتُنسى، يوم «يؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط»^(١).

ولئن أخذت شهواتك وزيت وشربت الخمر وظلمت وغششت وأكلت مال غيرك وسكنت القصور وفرحت بزينة الدنيا؛ فما قيمة ذلك في الآخرة يوم «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب»^(٢)، فانظر ما أهون لذات الدنيا في جنب عذاب الآخرة؟

فلا تستثقل طاعة، فهي راحتك غداً، ولا تخدع نفسك بمعصية، فهي عذابك وشقاؤك غداً.

فالسيارة الفارهة التي تشتريها وتركها، واللباس الثمين، والطعام الفاخر، والقصر الكبير، والمصانع العظيمة، والجاه العريض.. ليست قيمتها ما تظنه اليوم، وليست قيمتها ما يعظملك لأجلها الغافلون، ولا ما يتفاخر به أهل الدنيا منها، وإنما قيمتها ما تجد من حسابها في الآخرة: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

فانظر إلى أعمالك في الدنيا بمنظار الآخرة، وبميزان الحق، ولا تلتفت إلى موازين الناس، ولا تغرنك زخارف الدنيا وبهارجها: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٨٠٧ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٨٠٧.

وَأَزَيَّنْتَ وُجُوهَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَدِ رُؤِبَتْ عَلَيْهِمُ أَثْنَاهَا أَمَرْنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿يونس: ٢٤﴾.

لا يكن ميزانك دنيوياً، تستكبر عن أمر ربك، وتطلب الجاه والنعيم والعلو في الدنيا، وتنسى ربك وتكفر به، وتظن نفسك على خير، فإذا جئت إلى الآخرة لم تجد وزناً لأعمالك، بل خاب ظنك وخسرت كل شيء: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَبُطِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥]، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَذُّهُمْ لَبِئْسَ بُرْجَانٌ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِذَا كُنتُمْ فَسْقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

اجعل ما أعطاك الله لعبارة آخرتك، ولا تعمر من دنياك إلا ما ينفعك في دينك وآخرتك، ويوزن لك يوم القيامة ثقيلًا، استعمل دنياك لآخرتك، ولا تكن ممن تعلق بالدنيا وظنها محل الخلود، ونسي آخرته الباقية، ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تُعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١].

قَدِّمْ عملاً وإحساناً لتجزى من جنس عملك: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥-١٩]. لتجزى على إحسانك إحساناً، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وإذا كنت في أي وقت خيراً بين عملين فوزَّئها بميزان الآخرة، واختر ما هو خير لك هناك:

فإذا وجدت فراغاً في وقتك، يمكن أن تملأه بقراءة القرآن أو بقراءة قصة خيالية، فأيهما أنفع لك في الآخرة.

أو خیرت بین الجلوس إلى تمثيلية أو برنامج أكثره اللغو، و بین الجلوس إلى العلماء والصالحین فی طلب العلم والحث على صلاح النفس وخیرها؛ فاسأل نفسك: أيهما خیر لك، ولا تغش نفسك.

وإذا زاد من مالک عن حوائجک الأصلية، يمكن أن تصرفه فی قضاء حاجة فقیر أو مداواة فقیر، ويمكن أن تصرفه فی دعوة إلى الله، ويمكن أن تصرفه فی تغییر سيارتك إلى سيارة أفخم، ويمكن أن تصرفه فی سفر للترفة والترفيه، فاسأل نفسك: أي ذلك خیر لك فی الآخرة.

اجعل الآخرة أمام عينيك، ما كان من خیر فيها فاحرص عليه، وما كان من شر فيها فاحذر منه، اجعل ذکر الجنة هو الدافع والباعث لك إلى كل خیر وطاعة، واجعل ذکر النار هو الحاجز لك عن كل شر وعصیان، فإذا صرت بحيث لا تعمل عملاً ولا تترك عملاً إلا بحسب النظر إلى الآخرة؛ فقد صرت مخلصاً لله، تزين بميزان الله، ليس فی قلبك التفات إلى الدنيا، ولا إلى موازين أهل الدنيا، هذه ثمرة تذكّر اليوم الآخر: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرْنَا الدَّارَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [ص: ٤٦].

وإذا كان الإنسان قد عرف أن الدنيا لا تستأهل أن تكون هدفاً له، وأن الآخرة هي هدفه الذي يسعى إليه، وأن سعيه إلى هذه الآخرة إنما يكون بالرجوع إلى أحكام الله التي جاءتنا عن طريق رسول الله ﷺ.

إذا عرف الإنسان ذلك فلا بد أن يعرف أيضاً أن هذا الرجوع إلى أحكام الله ينبغي أن يكون دائماً في كل وقت، وشاملاً لكل أمورنا وأعمالنا وتصرفاتنا، ولا يجوز أن نعطي حق الحكم لأنفسنا ولا لغيرنا من الخلق، وهذه المسألة ذات أهمية كبرى، وآثارها في الحياة كبيرة جداً، وأثرها في تزكية النفس عظيم؛ لذلك كان لا بد من تخصيصها بالبيان والتفصيل، فإلى ذلك:

المبحث السادس ما هي الأحكام والقوانين التي تضبط علاقاتي، وأسير عليها في حياتي؟

إن كل تصرف أو موقف في الحياة من فعل أو قول أو تفكير أو توجه أو قرار؛ كل ذلك ينبغي أن نرجع فيه إلى مالكننا ومالك كل شيء، إلى الله، فصاحب الملك أحق بأن يحكم في ملكه ومخلوقاته كما يشاء.

هذه الحقيقة التي تعرفها العقول وتدرکها إذا استقرت في ذهن الإنسان وعمل على أساسها، هي التي تدفعه إلى العمل بالأعمال التي تزكي نفسه، الأعمال التي حكم الله بها وأنزلها تشريعاً لنا ليُصلحنا به، وليُخرجنا بها من الفساد والتدسية.

- الله هو الذي خلقنا وأوجدنا ويملكننا، وهو الذي يُمِد كل مخلوق ويتصرف فيه، ويبقيه أو يفنيه، ويثيبه أو يعاقبه، فالكل خاضع لقدرته، فيجب أن يخضع لحكمه وأمره، قال الله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِذْ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، يخاطبنا الله تعالى بالمنطق السليم أنه ما دام الكل مستسلماً لقدرته وخاضعون تحت قهره وقدره، فالواجب أن لا يخرجوا عن دينه وأمره: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾؟، وقال تعالى ذاكراً قول يوسف عليه الصلاة والسلام وهو ينصح رفيقه في السجن: ﴿يَصْدِرُكَ السِّجْنُ عَنْ أَبَابٍ مَّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَشْرَءَ آبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠]، فبين أن القهار وحده هو الذي ينبغي أن يخضع له الكل، فلا حكم لسواه في ملكه، ولا عبادة لغيره، وهذا هو الطريق المستقيم القويم.

وإذا أردنا أن نخضع لرَبِّنا وخالقنا وإلهنا، فعلينا أن نعيش كما يشاء في كل شيء؛ في نياتنا وعباداتنا وأعمالنا ومعاملاتنا وأخلاقنا، وأول ذلك أن نعترف أن له الحقَّ في أن يحكم علينا، فمن لم يعترف بأن الحكم له فهو كافر بالله وبحقه: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ومن اعترف بذلك لكنه خالف حكم الله عن عصيان وتهاون؛ كان فاسقاً خارجاً عن الطاعة رغم اعترافه بحق الله في أن يطاع: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، ومن خرج عن حكم الله - عصياناً أو جحوداً - كان ظالماً لنفسه، وقد يكون ظالماً للناس إذا كان بعصيانته مانعاً لهم من حكم الله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وكيف نعطي الحكم لغير الله، وغير الله مخلوق مثناً، فصاحب الأمر لا بد أن يكون أعلى رتبة من المأمور، وليس أحد أعلى من الخلق إلا خالقهم، وقد نبه الله عقولنا إلى أن الأمر والحكم لا يكون إلا للخالق فقال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ومهما كان المخلوق عالماً أو حكيماً أو خبيراً فلن يكون عنده مثل علم الله ولا حكمته ولا خبرته ولا إحاطته بخلقه ولا معرفته بما هو أنفع لخلقه في الدنيا والآخرة، فكيف يستوي تشريع الخلق - سواء كانوا علماء أو قضاة أو حكاماً أو غيرهم - مع تشريع الخالق، لذلك أنكر الله سبحانه على من أشرك معه غيره في الحكم والتشريع: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وكل حكم يخالف حكم الله فإنما هو جهل، فكيف ترضى به: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وكيف لا يكون جهلاً وهو يخالف علم العليم الخبير؟

ومن يرى لنفسه أو لغيره الحقَّ في أن يحكم بغير أمر الله؛ فهو ضالٌّ جاهل بالله منكر لحق الله، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فلا يكون المؤمن إلا مستسلماً لأمر الله راضياً به، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥]، فلو أن إنساناً ظن في نفسه أن حكم الله غير سليم أو غير عادل أو غيره أحسن منه فلا يكون مؤمناً حقاً، حتى لو عمل به، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

ولا يكفي أن يستسلم الإنسان لله في بعض أحكامه ويعترض على أخرى، بل لا بد أن يستسلم لجميع أحكامه حتى يكون مؤمناً، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

ولا يمكن للمؤمن أن يفكر في أن يقترح على الله رأياً، ولا يمكن أن يظن أن الله يجهل أمراً أو يظن أن الله لا يفرق بين الخير والشر، ولا يمكن لمؤمن أن يقدم أمراً على أمر الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

ومن يعطي لنفسه الحق في التشريع بخلاف أمر الله، فإنها هو مستكبر على الخلق يميز نفسه عليهم وهو مثلهم، فيجعل لنفسه الحق في أن يطاع، وينازع الله في هذا الحق، فيعطي لنفسه حقاً من حقوق الإله بأن يجعل لنفسه الحكم بغير حق، ويستكبر على الخلق بذلك، لذلك سباه الله طاغوتاً فقال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْقِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الذِّبْنَ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ أَهْمُ الظُّلُمَاتِ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦-٢٥٧]، فكيف يطيع هذا المستكبر الطاغوت إلا جاهل مخدوع؟

- إن إدراكنا بأن الحكم لله؛ هو الذي يدفعنا للحرص على طاعة الله واتباع أمره والاستقامة عليه، وهو الذي يحملنا على الاعتصام والتمسك بالكتاب والسنة، ولا تتم تركية إلا بوجود هذه الطاعة وتلك الاستقامة.

فلا معنى أن نتحدّث في تزكية العقل والقلب والجسد، في جانب العقيدة أو العبادة أو المعاملة والسلوك أو الأخلاق، أو أي جانب من جوانب الحياة؛ لا معنى لهذا الحديث مع الغفلة عن هذه الحقيقة بأن الحكم لله، فلا بد أن تكون هذه القضية ثابتة راسخة واضحة، فهي المبدأ الأصيل الذي تنبثق القيم والتشريعات والأخلاقيات والسلوكيات الصحيحة، وإلى هذا المبدأ الأصيل يجب أن نحاكم أنفسنا ومواقفنا وتصوراتنا وواقعنا.

ومن فهم هذه الحقيقة ومشى على أساسها وبنى حياته عليها في اعتقاده وقيمه وثقافته وأخلاقه وأقواله وأعماله وتفكيره وتقاليده؛ كان رجلاً ربانياً، لأنه يسير وفق رسالة ربانية في مصدرها وغايتها، وإذا سارت البشرية وفق هذه الحقيقة فذلك هو الذي يصحح عقائدها ويقوم سلوكها، وذلك الذي يرتقى بالإنسانية نحو الغايات السليمة، ويحقق الكمال في تزكية البشرية وطهارتها، لذلك فالعالم كله بحاجة إلى هذه الثقافة المنطقية، التي تردّنا إلى هدي القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

وإذا كانت الأمم قد صنعت ثقافتها بفكر العقول القاصرة والأهواء المائلة؛ ومع ذلك تصر على هويتها وثقافتها وقيمتها وتمايزها، فكيف بمن كانت ثقافته ربانية كيف يتخلّى عنها أو يفرط بشيء منها أو ينام عن الدعوة إليها، وقد عرفنا أنها الحق وأنها من عند الله الحق سبحانه.

وَمَنْ طَلَبَ معرفة هذه الحقائق وفهمها عِلِمَ أن ما حَكَمَ به الله هو الذي يخرجنا من الغفلة واللهو والضياع والانحراف، إلى السعادة واليقظة والاستقامة والحياة: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

- وقد علمت أن صاحب الحق في الحكم هو الله وحده، وكل خلقه محكومون بحكمه، بمن في ذلك رسل الله وأنبياءه عليهم الصلاة والسلام، فليس لهم أن يخرجوا عن حكمه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، وإنما جاءت الشرائع تأمر باتباع الأنبياء لا على سبيل جعل الحكم

لهم، وإنما لأنهم قد أرسلهم الله وعرفهم بحكمه، فإنما يحكمون بحكم الله، فاتباعهم اتباع لحكم الله، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فهم لا يحكمون إلا بما علمهم الله وكما أمرهم، قال سبحانه: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

- وكذلك ما يحكم به العلماء والمجتهدون في دين الله؛ فلا يعتبر ذلك حكماً من عندهم، وإنما هم راجعون فيه إلى أحكام الله، ويستعملون أدلة الشرع والأصول التي أقامها، والقواعد التي جعلها معاً لمعرفة أحكام الله واستنباطها، فما يأخذه الإنسان عن العلماء بدين الله لا يكون رجوعاً إلى غير حكم الله.

والإنسان العامي يحتاج إلى صحبة العلماء ليتعلم منهم ويعرف أحكام الله، التي يجب أن تضبطه في حياته، ويبحث المسلم عن العلماء الصادقين الأتقياء، الذين يتحرّون ويمتهدون غاية الجهد في معرفة أحكام الله، ولا يتجرّؤون على الفتوى، ليكون مطمئناً أنه حينما يعمل بما علّموه قد عمل بحكم الله حقاً.

- وإذا أدركنا أنه لا يكون الحكم إلا لله، وأن حكم الله بلغنا عن طريق رسول الله ﷺ فيما جاء به من كتاب وسنة، من قول أو فعل أو غيره، فإن مظهر الرجوع إلى حكم الله هو الرجوع إلى الكتاب والسنة، ففيهما أحكام الله، وحتى يزداد أحدنا حرصاً وتمسكاً واعتصاماً بالكتاب والسنة؛ أُورِدَ بعض النصوص الشرعية التي تأمرنا وتحثنا على الاعتصام بهما:

الأمر بطاعة الله ورسوله

والتمسك والاعتصام بمصادر الأحكام: الكتاب والسنة

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، فالقرآن بيان للحق، وهو سبيل الهداية إلى المطلوب من الخلق، ولا يتنفع منه ولا ينال ما فيه من رحمة إلا من خضع للحق فأمن به.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، فلا صلاح ولا إصلاح في البشرية بغير تمسك بالقرآن وعقائده وأحكامه، ومن تركه فقد تاه ولم يدر كيف يعيش حياته وماذا يعمل فيها وكيف يفوز بعدها.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتِكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، فالنبي ﷺ إنما يحكم بالحق الذي أراه الله إياه وعلمه إياه، فكل الشريعة من الله وحده، والنبي ﷺ إنما هو رسول ومبين ومبلغ لأمر الله سبحانه.

ومن تمسكنا بالقرآن الكريم أن نتمسك بما ثبت عن النبي ﷺ، لأن القرآن هو الذين أمرنا بذلك، فقد أخبرنا القرآن بأن سنة النبي ﷺ وأقواله هي من عند الله، وما كان من عند الله يجب اتباعه، قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١-٤].

وأخبرنا القرآن أن الله أعطى رسوله ﷺ سلطة بيان أحكام القرآن، لأن في القرآن أحكاماً مجملة تحتاج إلى تفصيل وبيان، لا نستطيع القيام بتكاليفها إلا بعد بيانها من النبي ﷺ الذي جعل الله البيان له، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وأمرنا الله بطاعة رسوله، وجعل ذلك مع طاعة الله سبباً في الرحمة، فقال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وجعل طاعة الرسول ﷺ طاعة لله، فالله علمه الحق وهداه إليه وحفظه عليه، فكل قوله وفعله موافق لمراد الله، قال جل جلاله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ [النساء: ٨٠].

وأمرنا الله تعالى باتباع ما يأتينا من عند الرسول ﷺ، وبترك ما نهانا عنه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمَّاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وأوجب علينا ردّ ما نختلف فيه إلى الله وكتابه، وإلى الرسول وسنته، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فليس للعلماء أن يجتهدوا خارج نطاق الكتاب والسنة.

وأوجب علينا قبول ما يحكم به النبي ﷺ وجعل ذلك شرطاً من شروط الإيمان، فقال عز وجل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وليس لأحد أن يختار متابعة شرع الله أو عدمه، وليس لأحد أن يختار من شرع الله ما شاء ويترك ما شاء، فالأنبياء لم يبعثوا عبثاً، بل يجب طاعتهم وقبول قضائهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وحذر الله من مخالفة النبي ﷺ ورتب على ذلك العقوبة الأليمة، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

ومما جاء في السنة يحثنا على طاعة النبي ﷺ ومتابعته:

أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»^(١).

وعن العرياض بن سارية رضي الله عنه قال: «وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي، فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ»^(٢).

وقال النبي ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(٣).

وقال النبي ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٤).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل على رسول الله ﷺ أحدث، تقرؤونه محضاً لم يُشَبَّ^(٥)، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا، والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم»^(٦).

(١) رواه البخاري رقم ٦٨٥١، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقوله: (أبى) أي امتنع عن الإيمان أو امتثال الأمر.

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٦٧٦، وقال: حسن صحيح، ونحوه أبو داود رقم ٤٦٠٧، وغيرهم، (النواجذ): الأنياب، وقيل الأضراس، والمراد: تمسكوا باللسنة تمسكاً شديداً.

(٣) أخرجه البخاري رقم ٢٥٥٠، ومسلم رقم ١٧١٨.

(٤) أخرجه مسلم رقم ١٧١٨.

(٥) (محضاً) أي خالصة ليس فيه تغيير ولا تبديل ولا تحريف، (لم يُشَبَّ): أي لم يختلط، ولم يداخله باطل.

(٦) رواه البخاري رقم ٦٩٢٩.

وعن أنس بن مالك: أنه سمع عمر، الغد حين بايع المسلمون أبا بكر، واستوى على منبر رسول الله ﷺ، تشهد قبل أبي بكر فقال: أمّا بعد، فاختار الله لرسوله ﷺ الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسولكم، فخذوا به تهتدوا لما هدى الله به رسوله^(١).

أحكام الله تشمل العبادات والمعاملات:

- وإذا كانت العبادات من أحكام الله التي لا يحق لأحد أن يتدخل في تشريعها، لأن الله له الحق أن يُعبد كما يشاء وكما يختار، فكذلك المعاملات لا يحق لأحد أن يتدخل في تشريعاتها ويخالف فيها أمر الله، لما بينا من أن الله هو صاحب الحق أن يحكم في كونه وخلقته كما يشاء، وحتى نزداد حرصاً على أحكام الله في المعاملات نبين لك نماذج كيف أن تشريعات الله في المعاملات هي تشريعات منطقية، وهي تحقق مصالح العباد على الوجه الأكمل، نبين ذلك في المبحث الآتي:

(١) رواه البخاري رقم ٦٨٤١.

المبحث السابع كيف أتعامل مع الخلق والكون على وجه المصلحة

- يحاول الإنسان العاقل أن ينتفع من هذا الكون كله، بأرضه وسماواته وجميع مخلوقاته، والله أخبرنا أنه سخر جميع ذلك للإنسان: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، وهذه المخلوقات ينتفع منها الإنسان على طرائق مختلفة، فمنها ما ينتفع منه في طعامه وشرابه، ومنها ما ينتفع منه في تنقله، ومنها ما ينتفع منه في سكنه ولباسه، ومنها ما ينتفع منه في معرفة الطريق والجهات، ومنها ما ينتفع منه في فكره واستدلاله على خالقه وربّه، وغير ذلك.

ولكن هذا التسخير مرتبط بحكمة الله وأحكامه، إذ إن الانتفاع من هذا الكون وما فيه؛ لا بد فيه من الرجوع إلى خالقه، إذا كان قد بين لنا كيف نستعمله وننتفع منه.

فلله في هذا الكون حكمٌ، منها الابتلاء: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

ولله فيه أحكام، فبعض مخلوقات الله خلقها مسخرة لابتلاء العبد، فيكون انتفاع العبد بتركها والوقوف عند حكم الله فيها، من قتل أو اقتصار على ما أباح الله منها، أو غير ذلك، فبعض المؤذيات كالعقرب أمرنا بقتلها، والخمر والخنزير لم يسمح بأكلها، وجمال النساء لم يسمح بالاستمتاع به إلا في حدود العفة والزواج، لا للزنا والتعري.

وجاءت شريعة الله لتجعل من هذا التسخير موافقاً لمراد الله لا ليعارض مراده من خلقه، وجعلت هذا التسخير يحمل العدل والتوازن بين الفرد والمجتمع، فما كان

مسخرأ لجهة خاصة لا يعني أن يكون مسخرأ للكل، وما كان مسخرأ على وجه خاص لا يعني أن يكون مسخرأ على كل حال، وما كان مسخرأ لك ربما يمنع عن غيرك، وما كان لغيرك ربما يمنع عنك.

سخر لك الطعام، لكن حكم عليك فيه، أن لا تأكل أشياء حرمها عليك، وحرّم عليك الأكل في وقت أمرك فيه بالصيام...

سخر لك المال، لكن حرم عليك أنواعاً من المعاملات، فيها ظلم للآخرين، كالربا، أو فيها انحراف عن أخلاق الصدق والتعاون فحرم عليك الغش وأكل المال بالباطل والرشوة والاستغلال...

وهكذا تجد كثيراً مما يقع فيه الناس من الباطل والحرام، وإنما وقعوا فيه لتوهم أنه مسخر لهم جملة وتفصيلاً، وإنما سخره الله وفق حكمة وأحكام.

- لا يجوز للإنسان أن يتوهم أن له الحرية في ملك غيره، ومن كان في ملك الله؛ فعليه أن يرجع إلى أحكام الله ويتقيد بأوامره، وتبقى حدود الحرية هي تلك التي أعطاه الله الحرية فيها، فأذن له أن يعمل ما يشاء فيها، فهذه هي حدود الحرية التي لا تتجاوز الحق، ولا تكون تعدياً ولا ظلماً.

حينما يفرض الخالق شيئاً على خلقه؛ فلا حرية لهم، وإنما الحرية من وراء العبودية والطاعة لله.

ومن خرج عن عبادة الله وطاعته فإنه لا يكون قد خرج إلى الحرية، وإنما يتحول من عبادة الله الذي يستأهل أن يعبد، إلى عبادة غيره ممن لا يساهل أن يُعبد، فإما أن يتحول إلى عبادة نفسه وهواه وشهواته المنحرفة وعقله القاصر، وإما أن يتحول إلى عبادة غيره من الناس، فيطيع الحاكم أو القاضي أو رأس العشيرة أو رئيس الحزب أو رأي العامة والشعب، ويتنازل عن رأي نفسه وعن شهواته بأمر هؤلاء، ويترك حكم الله، على الرغم من أنه هو الوحيد الذي يستحق أن يحكم، وهو الأعلم والأحكم وهو

الأخبر بنفوسنا وما يصلحها، فمن ظن أنه حينما خرج عن حكم الله وعبادته صار حراً؛ فقد توهم، وإنما خرج من العبودية اللائقة السائغة إلى العبودية غير اللائقة وغير السائغة، خرج إلى عبادة مخلوق لا يستحق أن يعبد، فصار بذلك أيضاً عبداً لا حراً، وقيد نفسه بما لا ينفعه، وخرج عن العبودية لله التي تنفعه، والتي ينال بها الجنة والرحمة والسعادة في الدنيا والآخرة.

- وقد يتوهم كثير من الناس أن الحرية يمكن أن تكون مطلقة، فيفعل الإنسان ما يشاء، حتى ولو كان على حساب المجتمع والناس عامة، وهذا ما حاولت العلمانية الرأسمالية أن تغري به مجتمعاتها، فأعطتهم حرية كاملة في المال والتجارة، وحرية كاملة في الفساد والشهوة وما يتعلق بالمرأة، وعلى الرغم من أنهم يقيدون كثيراً من الحريات الخاصة لمصلحة المجتمع والعامة؛ فإننا نجدهم قد خالفوا القاعدة في أمر المرأة والمال، حتى ولو أضرت بالمجتمع، والمنطق السليم يقول: إن الفرد واحد، والمجتمع أعداد كثيرة، فإذا تعارضت مصالح الكثير مع مصالح الفرد؛ فيجب أن تقدم مصلحة الأكثر، فهذا هو الحق، وهذه هي روح الحرية والعدل، أما أن يعطى الفرد حريته ويمنع المجموع والأكثر حريتهم؛ فذلك غاية الخروج عن الحرية.

والله تعالى راعى في تشريعاته جميعاً أن تكون مصلحة المجتمع مقدمة على مصلحة الفرد، مع إعطاء الفرد مصالحه وحرياته على أحسن ما يمكن، مع تحقيق ما يريده الله من أحكام وعبودية، فإن العبودية لا تعنى أن يُمنع الناسُ مصالحهم، بل العبودية كلها لتحقيق مصالح الناس، لكن في الدنيا والآخرة.

- المعاملة مع الناس يدخل فيها المعاملات المالية، والأحوال الشخصية، والعلاقات الأخوية والعلاقات الداخلية في الدولة، والعلاقات الخارجية الدولية، وغير ذلك.

والمعاملة مع الكون يدخل فيها الكسب والعمل الديني الذي يأخذ فيه الإنسان حاجته مما خلق الله، فما الذي يطلب الإنسان من ذلك وما الذي يأخذه ويستفيد منه ويرغب فيه، وما الذي يترك منها ويزهد فيه.

إن من جوانب تزكية النفس حسن المعاملة مع الناس ومع الكون، وجريان هذه المعاملات وفق الأحكام التي أمر الله بها، ولا بد أن يكون عند الإنسان تصور عقلي صحيح عن هذه المعاملات حتى ينجح في معاملاته وعلاقاته المتعلقة بذلك، لذلك فالعقل يتساءل: ما هو المنطق العقلي والأساس الشرعي للأحكام التي يجب أن نتعامل على أساسها مع غيري من الخلق - أفراداً وجماعات - ومع ما سخر الله لي في الكون.

- لقد شرَّعَ الله أحكاماً للمعاملات مع الناس والكون؛ كما شرع أحكاماً للعبادات، وتشريعات المعاملات في جملتها قائمة على المصالح والأخلاق المحمودة، فالله تعالى أباح ما فيه مصلحة للعباد، وحرم ما فيه مفسدة لهم وضرر، وأقام أحكام هذه المعاملات لتحقيق العدل وتمنع الظلم، وأقامها على الصدق والوضوح ومنع الغش والجهالة، وشرعها بحيث تؤدي إلى التآلف وتحول دون إنشاء الخصومات والبغضاء. وهذه جميعاً أمور يدرك العقل حسنها ومصالحتها ونفعها.

والأخلاق التي تضبط المعاملات كلها جمال وخير، فالنفوس السليمة ترغب بها وتطلبها وتتخلق بها، ولا يمكن أن تكون الأخلاق محمودة في زمان ثم تكون مذمومة في زمن آخر، فهي قيم ثابتة، تدرك العقول جمالها ومنطقيتها، وإدراك الإنسان لجمال الأخلاق هو الذي يشكل الدافع الحقيقي للتحلي والتخلق بها، وكل من كان راغباً في الخير فلا بد أن يكون حريصاً على الأخلاق الطيبة، وخاصة إذا تذكر أن وراء هذه الدنيا آخرة سوف يحاسب فيها على أخلاقه ومعاملاته، فيجازى ويثاب على إحسانه وخلقه، ويعاقب على سوء خلقه وإساءته.

- إن من واجب الإنسان أن يطيع الله تعالى في هذه المعاملات، وأن يقوم بها على الوجه الذي شرعه الله، لأن ما شرعه خالقنا ومالكنا لا يجوز لنا أن نخالفه، وواجبنا أن نتبع أمر الله في كل شيء، سواء علمنا ما فيه من مصالح أم لم نعلم، فطاعتنا لأمر الله هي المصلحة الكبرى بحد ذاتها.

وعلى الرغم من وجوب طاعة أمر الله وتشريعاته سواء علمنا مصالحها أم لا؛ فإن هذه التشريعات لا تخلو من مصالح تدركها العقول، وإذا عرفها الإنسان كان ذلك أدعى في نفسه إلى التمسك بها، والعمل وفقها، وهذه أمثلة على ما تتضمنه المعاملات من حِكَمٍ ومصالح:

- البيع والشراء والإجارة وغيرها من المعاملات المالية؛ قد أباحها الله تعالى لما فيها من مصالح ظاهرة، تحقق حاجات الإنسان، ويختبر الله تعالى العباد من خلالها في معاملاتهم وأخلاقهم، وقد حرم الله بعض الصور من التعامل بالمال، كالربا، وذلك لمصلحة راجحة وحكمة واضحة، وذلك أن الربا هو استبدال مال بمال أكثر منه بغير وجه حق، حُرِّم لما فيه ظلم واستغلال، إذ هو جشع من الأغنياء واستغلال لحاجة الفقراء، يزداد معه الغني غنى والفقير فقراً، وهذا يتنافى مع مبادئ الرحمة والإحسان والتعاون، التي يدرك العقل حسننها.

- وقد أباح الله تعالى الزواج، لما فيه من مصالح العفة وبقاء النسل والتعاون على حاجات الحياة وأعبائها بتوزيع الوظائف في البيت وخارجه، وفتح باب الطلاق لما فيه من حلٍّ لمشكلات، وكل ذلك فيه مصالح ظاهرة للعباد، وحرم الله الزنا، فمنع هذه العلاقة لمصالح واضحة، لأن علاقة الزنا تفتح باب الشهوة وتُخرج عن العفة، ومن لم نغلق عليه طريق الشهوة المحرمة، وفتحنا له باب الإثارة؛ فإن الشهوات تشغله، فلا يمكن أن يصفو ذهنه وقلبه لأي هدفٍ أو عملٍ أو طلبٍ علم، فشهوته تشغل باله في كل وقت، وحرم علاقة الزنا لأنه يقطع الرحم، إذ كيف يتولى والد ولداً لا يدري هو منه أم من غيره، ولا يمكن أن تقوم على هذا الأساس الفاسد أسرةٌ لتحقيق مصالح الإنفاق والسكينة والتعاون والمودة، وإذا لم يوجد والد يتكفل الأولاد؛ صار على الأم عبثان، عبء الحمل والإرضاع والرعاية، وعبء الإنفاق والعمل خارج البيت، وذلك تكليف لها فوق طاقتها، وراحة للرجل الذي لا ينفق إلا على نفسه، لأنه لا يعترف على أولاد المرأة الزانية، وليس بينه وبينها عقد يلزمه بخدمتها أو تكفل أبنائها،

فليس من العدل ولا من المنطقي أن يكون الزنا مشروعاً وهو يؤدي إلى إرهاب المرأة وتحميلها المسؤولية وحدها، كما يؤدي إلى كل تلك المفاسد.

وفي عدم رعاية الأب والأم للأولاد تضييع لهم، إذ يصير كثير من هؤلاء المواليد مجرمين ضد المجتمع، وهذا فساد ظاهر.

أما جعل الإنفاق والعمل حقاً على الرجل ففيه توزيع للمهام بين الرجل والمرأة، ولا يمكن أن يحصل ذلك إلا باشتراكهما الحقيقي الصادق في الرابطة الأسرية الأبوية مع الأولاد، وذلك لا يكون إلا بالزواج وإنشاء أسرة وبيت، ولا يمكن أن يكون مع الزنا والفاحشة، والتنقل من امرأة إلى أخرى، ومن رجل إلى آخر.

- وما شرع الله فيه أحكاماً تحقق مصالح تدركها العقول:

العلاقة مع الآخرين من دعوتهم أو مسألتهم أو حربهم، فعلاقات الدعوة والنصح والإرشاد للآخرين، وعلاقات السلم والحرب، على حسب ما شرعه الله كلها أمور معقولة، وذلك أن الإقرار بالوهمية الله يقتضي أن يكون جميع خلقه عبيداً طائعين له، فلا يصح أن يقول أحد: أنا أعبد الله وما لي ولغيري، فمن الواجب أن تكون سبباً في تعبيد الخلق جميعاً لله تعالى، والقيام بهذا الواجب سبب في إنقاذ الناس من النار، وهي مصلحة ظاهرة معقولة للآخرين، كما أنها تعود على الداعي والناصح بالمصلحة لأنها سبب في صلاح البيئة حوله مما يعينه أكثر على تزكية نفسه.

والعلاقة مع الآخرين وإقامة المصالح بينهم لا يصح أن تُفوت المصلحة مع الخالق، لذلك لا يجوز إقرار أهل الباطل الذي خرجوا عن أمر الله، فوجبت دعوتهم، ووجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذا بالغوا في المنكر إلى حد يفوت مصلحة الإيمان على الخلق، وجب جهادهم.

والجهاد هو علاقة الحرب والقتال التي تكون مع الآخرين، وهو أمر منطقي معقول، إذ لا يصح لمخلوق أن يُقرّ مخلوقاً آخر على معارضة خالقه، ولا يصح أن يقره

على الباطل والفساد، خاصة وقد طلب الخالق من كل مخلوق أن يكون سبباً في هداية غيره وسبباً في منع غيره من الباطل.

ويظهر لك جمال الجهاد ومنطقيته، وما فيه من رحمة؛ إذا علمت أن المجاهد يبذل ماله ونفسه ويضحى بهما لينقذ غيره من النار، فيتحمل الأذى والجرح إحساناً إلى غيره، بأمر ربه.

والمجاهد لا يتوانى عن الجهاد خوفاً من الموت، لأمر معقول يعلمه، وهو أن الله هو المحيي وهو المميت، فإذا قاتل في سبيل الله وجاهد لا يأتيه الموت إلا بقدر الله، فالقتال والعدو لا يقرب أجلاً، والنوم في البيت والجبن والاختباء لا يؤخر أجلاً.

- والمعاملات والعلاقات بين الناس والعلاقة مع الكون هي أمور أحوجنا الله إليها واختبرنا بها، فلم يخلقنا الله كالملائكة لا يحتاج بعضنا بعضاً، ولم يخلقنا مثلهم لا نحتاج إلى الطعام والشراب واللباس والسكن وغيره مما يستخرج من الأرض وموادها، وإنما جعل الله من عبادتنا تلك العلاقات والمعاملات التي نحتاجها، إذا أقمناها على الوجه الذي أراده، وقصدنا بذلك القصد الصحيح الذي شرعه لنا.

والهدف الأسمى لهذه العلاقات والمعاملات في دين الله أن تُنشئ حضارة ذات قيم أخلاقية، راجعة إلى الحق الذي تدركه العقول، تحقق مصالح العباد، التي تعينهم على إقامة أحكام دينهم وعباداتهم وإصلاح ما من شأنه نفعهم في آخرتهم.

فالعقل يسعى لعبارة الدنيا على الوجه الذي يحقق له حاجاته، ويختصر عليه التعب، ويعينه على إقامة عبادته على أفضل وجه، العبادة بمعناها العام الذي يشمل العبادة الخاصة الفردية والعامة الجماعية، ويشمل المعاملة مع الخلق والعلاقات بينهم.

ولا يستطيع كل إنسان أن يقوم بكل حاجاته، فاحتاج الناس أن يقوم بعضهم بحاجة بعض، فلم يكن النظر في حاجة الإنسان إلى حاجته نفسه، بل النظر إلى حاجات الخلق جميعاً، ومجموع القيام بهذه الحاجات هو الذي يجب أن يشكل الحضارة،

التي تنطلق من الاعتقاد الحق وتنضبط بالسلوك السليم الراقي، وتحقق حاجات الجميع بأيسر سبيل.

لذلك فإقامة الحضارة والعمران أمر معقول، راجع إلى حاجة الجسد إلى ما سُخِّرَ له في هذا الكون، وإلى حاجة البشر إلى التعاون فيما بينهم لتحقيق حاجاتهم مجتمعين، «إن لجسدك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لزورك^(١) عليك حقاً، وإن لربك عليك حقاً».

- والعُمران والتقدم في أسباب المدنية منه ما هو حد واجب، وهو ما يتحقق به قضاء حاجات الإنسان وبقاؤه ونصرته للحق الذي يعينه على تحقيق المصالح الأخروية، والقيام بهذا الحد لا يُخرج المسلم عن العبودية والتزكية، بل يمكن أن يكون بالنية الصالحة عبادة يتقرب بها إلى الله، وما زاد على ذلك، مما هو ليس من الضروريات الحياتية للفرد والمجتمع؛ فلا يجوز أن يكون على حساب الواجبات الدينية، لأنه مباح فكيف يُقدَّم المباح على الواجب، كما لا ينبغي أن يُقدَّم على المندوبات من العبادات، إذ ليس من المنطق أن يُقدَّم المباح على الاجتهاد في الطاعة المندوبة، التي بها مزيد النعيم في الآخرة، إذ لا يستوي نعيم الدنيا القليل الزائل بنعيم الآخرة المقيم، قال تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

فليس من المنطقي أن أبني الدنيا وأسرف في الترفه فيها - ولو في الحد المباح - لأخسر الربح الأخروي والمزيد من النعيم، وذلك الذي ذمه الله تعالى بقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، فعدّ من استكبار الإنسان في الأرض ذلك العمران الزائد عن الحاجة، الشاغل عن الآخرة، الذي يضيع

(١) أي لمن يزورك، أي لضييفك.

الفراض والواجبات الدينية، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءُمُورُكُمْ وَلَا
 أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]،
 فالدنيا بما فيها من أموال وبنين ليس مأذوناً بها على وجه يشغل عن ذكر الله وطاعته،
 وقال تعالى محذراً من اتخاذ كل ربح لعمران الدنيا، بل تتخذ منه ما يوصلك إلى جنتك
 في آخرتك: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:
 ١٢٨-١٢٩]، فلك الآثار التي تتفاخر بها الدول وتعدّها مظهرًا من مظاهر الحضارة؛
 قد ذم الله منها ما كان شاغلاً عن الآخرة وعن فرائضه وأوامره^(١).

وقال سبحانه: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ
 الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، فالآخرة هي المقصود والمبتغاة بما أعطاك الله من مال ودنيا
 وعقل وجاه وقوة وسمع وبصر، والدنيا تأخذ منها نصيبك، وهو حاجتك والقدر
 الذي طالبك به الله بنفسك ولغيرك، وهذا النصيب يصير آخرة بالنية الصحيحة
 وبالرجوع إلى حكم الله في ما أعطاك.

- وليس من المنطقي ولا من الشرعي أن نُقْصِر في العمران والتقدم وبناء
 الحضارة عن القدر الذي نحافظ به على بقاء الإنسان وقدرته على القيام بمصلحته
 الحقيقية الأخروية، فلا يجوز لأحد من الناس أن يقصر في الأسباب التي تعين على بقاء
 الناس، وقضاء حوائجهم الجسدية الشخصية المباحة، ومن حوائجهم ما يعينهم على
 طاعتهم لله، فالإنسان لا يستطيع أن يقوم بحق دينه مالم يحم بحق جسده في حده
 الأدنى، الحد الذي يعطيه قوة الفكر والجسد، ويعطيه القدرة على القيام بالواجبات الدينية.

(١) لذلك لما بنى أحد أمراء المسلمين مسجداً كلف الملايين من الأموال، وأشغل مئات الرجال، نحو
 عشرين سنة؛ قام قاضي المسلمين عندما جاء يفتح المسجد يعثف الأمير ويذكره هذه الآيات، وعدّ
 فعله بناء للمسجد جريمة، لا حضارة ولا فخراً، فكم من فقير جائع، أو مريض لا يجد العلاج،
 أو جاهل لا يجد أن يتعلم، أو أعزب لا يجد أن يتزوج، أو كافر ينتظر من يهديه؛ أحق هذا المال،
 وأهم أن يتفق لهذه المهات الحضارية، من أن يُنفق في زخرفة المساجد وترتيبها.

ولا يصح للإنسان أن يهتم بإقامة حاجات غيره على حساب واجبات دينه، وإنما يقوم بها على وجه يتواءم مع المحافظة على واجباته، ولا يُقدَّم حاجات غيره على واجباته الشخصية إلا إذا كان شرع الله يلزمه بحاجات الغير على وجه أوجب من واجباته، فيؤجر بذلك عند الله.

- ولما كان الخلق لا يسرون على طريقة واحدة، ولا يهتدون جميعاً، فكان لا بد من اجتهد في دفع شرور الأشرار والمفسدين، فكان من حوائج الناس التي يجب أن يحققوها؛ تلك القوة التي يحصل بها دفع المفسدين وأذاهم عن البشرية، لذلك فطلب التقدم العسكري وإعداد الجيوش وتصنيع الأسلحة التي تردع الظالمين والمجرمين والمفسدين جزءاً من المطلوب شرعاً وعقلاً، ولا يصح الزهد فيما من شأنه قوة أهل الحق وردع أهل الباطل، وترك ذلك ليس من الزهد، بل هو من التهاون في أمر الله، وإنما ينشأ التقصير فيه بسبب الجهل بسعة دوائر التكليف، التي تعم البشرية جميعاً والأرض جميعاً.

فكان جزءاً من الحضارة أن تهتم الأمة المهتدية بصنع السلاح الذي به يتمكنون من إقامة الحق على الآخرين وإخضاعهم له، ومن الحضارة اهتمامهم بصنع أدوات الدفع للشر، وكل ذلك من العبادة التي يُتقرب بها إلى الله.

ولا يمكن أن تستقيم لك أيها الإنسان عبادتُك في جو يملكك فيه أهل الباطل ويروجون باطلهم، فتصبح البيئة فاسدة مريضة، ولو سلِمَتْ لك لم تسلم لأولادك والبيئة والمجتمع يربي على الباطل، فوجب الدفع للشر بالممكن من خلال الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن لم ينفع ذلك فلا بد من الجهاد الذي يقمع الباطل وأهله، والجهاد لا بد له من قوة وإعداد.

- وعلى ضوء هذه المعاني مجتمعة تفهم حقيقة المعاملات مع الآخرين، وعلى ضوءها تفهم حقيقة الزهد^(١)، فمن فهم الزهد على أنه الانفصال عن العلاقة الدنيوية

(١) ومجال كلامنا هنا عن الزهد في الدنيا من حيث الظاهر، أما زهد القلب فذلك واجب في كل حال، وهو أن لا يجعل الإنسان الدنيا مراده ومقصوده في حياته وأعماله.

فقد أخطأ، وربما قهرته الحاجة، فجاء التعلق بالدنيا من جهة حاجته ليخرجه عن زهده الذي يدّعيه، ومن تعلق قلبه بالدنيا وشهواتها بدعوى حاجته إليها فقد جعل الدنيا هدفاً ومقصوده، وذلك جهل بهوان الدنيا وأنها مطية لا مقصد، وهذا الذي بُشِّرَ بالنار، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

إن زهد القلب بالدنيا من أعظم أسباب التزكية، لأن الإنسان لا يقبل على ربه ولا يلتفت إلى آخرته؛ ما دام في قلبه تعلق بالدنيا وشهواتها، فوجب الزهد، لكن ما ذكرناه من حاجات الإنسان الشخصية وحاجات أهل الإيمان جميعاً، لا يجوز الزهد فيها، بل هي مما أمر الله به، فالالتفات إليها من العبادة، التي نطيع الله فيها، ونقبل عليه بها، ونستعد بها للآخرة.

- وإذا كانت أحكام الله التي بلغنا إياها النبي ﷺ هي التي يجب أن نطيعها، فما هي أهم أحكام الله التي يجب تعلّمها والعمل بها، نبين ذلك في ما يلي:

المبحث الثامن ما هو الحد الأدنى من الثقافة والعلوم التي نحتاجها في حياتنا؟

فيما يتعلق بالدين من العقائد والعبادات والمعاملات
ومعرفة النفوس وكيفية تزكيتها، وفيما يتعلق بالدنيا:

ما دام حكم الله هو الذي يجب أن يعمل به كل إنسان؛ فلا بد أن يتعرف على أحكام الله ويتعلمها، ليعمل بها.

والحد الأدنى من طلب العلم الشرعي، الذي يُفترض على كل إنسان أن يتعلمه؛ ليس بالحد الكبير، وإنما يكون على النحو التالي:

أولاً: تعلم أصول العقائد والمسائل المهمة في العقائد، التي لا يجوز للمسلم أن يغفل عنها ولا أن يجهلها، وينبغي أن يفهم الدليل والحجة في أصول العقائد بحيث لا يكون مقلداً لغيره على العمى، بل يكون مقتنعاً بما يعتقد، فلا يؤثر عليه ولا يشوش عليه أحد في اعتقاده، وهذا أول واجب مما على الإنسان أن يتعلمه.

ثانياً: أن يتعلم من علم الفقه القدر الذي يحتاجه كل مسلم في حياته.

ومما يحتاجه كل مسلم فقه الطهارة والصلاة والصيام، بتفصيلاتها من فروع وشروط وواجبات وسنن.

أما فقه الزكاة فقد لا نحتاجه في حياتنا، فلا يجب ابتداءً أن نتعلم تفصيلاته إلا على سبيل الندب، ولكن نأخذ ملخصاً عن الزكاة بحيث نعرف أن في الأموال

والذهب والفضة والبقر والشيء والماعز والزروع والعروض التجارية وغيرها زكاةً، ضمن شروط معينة، ومن وُجد عنده مال بالقدر الذي تجب فيه الزكاة؛ وجب عليه أن يتعلم أحكام الزكاة المتعلقة بأمواله.

وأما الحج لا يجب أن نتعلم أحكامه ابتداءً، سوى أن نعلم أنه فرض عند الاستطاعة، وإنما يجب أن نتعلم أعمال الحج إذا أردنا الحج وعزمنا عليه وأردنا الدخول في أعماله، عندئذ ينبغي أن تكون عالماً بالحج، حتى لا تقع في الخطأ والنقص نتيجة الجهل بأحكامه وتفصيلاته.

ويلتحق بالعبادات بعض أبواب الفقه فيجب معرفتها كالآتيان والندور والذبائح والعقيقة لما فيها من معنى القربة إلى الله. هذا هو الحد الأدنى من العلم بالنسبة للعبادات.

أما المعاملات فينبغي للمسلم أن يعرف شيئاً من أحكام المعاملات فيما يحتاجه في حياته عادة، كأحكام البيع والإجارة والنكاح، ولا بد للإنسان أن يكون لديه اطلاع على المعاملات في الجملة، ليعلم أن الله أحكاماً في التجارات والشركات والصرف والميراث والطلاق وغير ذلك.

وإذا لزمه أمر من هذه المعاملات، أو اشتغل بمعاملة لا يعلم أحكامها؛ وجب عليه عندئذ أن يتعلم أحكامها أو أن يسأل أهل العلم عنها.

ثالثاً: ينبغي أن يتعلم من علم التزكية الحد الواجب الذي يتعرف به على تطهير نفسه وإصلاحها.

- ومن واجب المقبل على الله تعالى الذي يريد خير نفسه وتزكيته أن يتعلم العقيدة والفقه والتزكية عند العلماء والفقهاء المتقنين الصادقين العاملين الربانيين، ومن كُتِبَ هذه العلوم المعتمدة عند علماء الأمة.

وعلى العالم أن يبدأ بتعليم الناس هذه الأمور قبل غيرها، فذلك من فقه العالم وربانيته، قال البخاري: «قال ابن عباس: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾» [آل عمران: ٧٩] - حلماء فقهاء، ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره».

- أما العلوم الدنيوية فيأخذ منها الإنسان ما يحتاجه في حياته، بشرط أن لا يكون ذلك مؤثراً على علم آخرته وعمل آخرته.

كما أن من العلوم الدنيوية ما هو فرض كفاية، وذلك مما تحتاجه الأمة في بقائها وقوتها ونصرة دينها والدفاع عن نفسها.

ولا بد للذين يطلبون هذه العلوم الكفائية - الذين يقومون بها نيابة عن الأمة - أن يكونوا قد حصلوا علم فرائضهم العينية بطلب الحد الواجب من علم العقائد والفقه والتزكية.

ومن طلب العلم وفق القواعد السابقة عسى أن يكون علمه مزكياً له ونافعاً له وللأمة المسلمة.

المبحث التاسع ما هي العلاقة الأهم في حياتك؟ وماذا ينبغي على مراعاتها؟

أهم العلاقات:

- إن معرفة الحقائق التي تنبني عليها العلاقات بين الإنسان وربه، وبين الإنسان والناس، على اختلاف عقائدهم ومبادئهم؛ من أهم الموجّهات للإنسان في حياته وأعماله، ومن بنى علاقاته على غير الحقائق الصحيحة؛ كانت حياته على غير هدى، ومعرفة الحقائق المتعلقة بهذا الأمر ثم العمل بمقتضاها من أهم ما تزكو به النفس، وهذه الحقائق هي الأساس الذي ينتج عنه الإخلاص والاستقامة والحب السليم، وهذه الأمور من أعظم أمور التزكية.

- لا بد أن يتساءل الإنسان: ما هي أهم علاقة لي في الحياة؟ ما هي العلاقة التي تتوقف عليها مصالحتي واحتياجاتي؟ وإذا كانت مصالحتي الكبرى تتوقف على العلاقة مع جهة ما، فكيف تكون علاقتي مع الآخرين؟ وإذا توقفت مصالحتي ومنفعتي على جهة ما؛ ألا يجب أن أحب تلك الجهة أكثر من غيرها؟ ألا يجب أن أخضع لها؟ ألا يجب أن أكون مخلصاً لها ومتفانياً في خدمتها؟

إن العلاقة الأهم في حياتك هي علاقتك مع الله، لأن مصالحك ترجع إليه، ومصلحك متوقفة على فضله وعطائه وإمداده، وعلاقتك الأهم هي التي يجب أن تكون أساس العلاقات الأخرى مع الخلق جميعاً.

إنه مهما يكن لك من مصلحة أو حاجة عند أحد من المخلوقين؛ فلن تكون محتاجاً إليه أكثر من احتياجك إلى خالقك، الله الذي أوجدك، ويملك حياتك وبقاءك،

ويملك سمعك وبصرك، ويملك قلبك وروحك، ويملك الكون الذي سخره لك،
ويملك مآلك ومرجعك، ويملك جزاءك أو عقوبتك، فمهما أحسن إليك المخلوقات؛
فلن يحسنوا إليك أكثر من الله.

ومهما أصلحت حالك مع أحد من المخلوقين ولم تصلح حالك مع الله؛ فلن
تستفيد، فديناك وآخرتك وسعادتك وخيرك، كلها بيد الله.

لأجل ذلك فالعاقِل من توجه إلى ربه وطلب رضاه، وعمل بطاعته وبما يرضيه.
من فهم هذه الحقيقة فلا بد أن يكون مستقيماً على أمر الله وأحكامه.

علاقة الحب الأهم:

- والعاقِل يجب من أحسن إليه، وليس أحد له إحسان عليك أكثر من الله، بل
كل إحسان الخلق راجع إلى إحسان الله ورحمته وما هيا لك وما خلق وما سخر لك.

والعاقِل يجب من يتصف بصفات الخير والحسن والكمال، ولا يجب من يتصف
بصفات النقص أو السوء، وليس لأحد صفات كصفات الله، وليس لأحد كمال ككمال
الله، فهو الأحق بأن يكون المحبوب الأول لكماله وفضله على خلقه جميعاً.

لذلك فلا بد أن تتوجه إلى الله بالطاعة عن حب ورغبة، لأن كل خير يصيبك
فإنما هو من فضله، فكيف لا تحبه، وهو المتصف بأحسن الصفات، فكيف لا تحبه؟

وليس من العقل ولا من المنطق أن تحب من هو أقل حسناً وكمالاً أكثر من
الأحسن والأكمل، وليس من العقل ولا من المنطق أن تحب من إحسانه لك قليل أكثر
من إحسانه وفضله عليك أكثر.

فالأمر الطبيعي أن يكون حب الإنسان لربه أعظم من حبه لسواه، وهذا شأن
المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

لمن نتوجه بأعمالنا:

وما دامت مصالحنا كلها راجعة إلى الله؛ فينبغي أن نجعل علاقتنا معه هي العلاقة الأسلم، ونعطيها الاهتمام الذي تستحقه، ونبني علاقاتنا مع الآخرين بناء على علاقتنا مع الله، فلا قيمة لعلاقاتنا مع الآخرين إذا كانت تُفسد علاقتنا مع ربنا، الذي نحتاج إليه ونفتقر إليه، بل كل علاقة تفسد علاقتنا مع الله هي علاقة خاسرة تُهلك صاحبها عاجلاً وآجلاً، ولو توهم أنه يستفيد منها قريباً.

ومن علم أن منافعه ومصالحه كلها في يد الله، وعلم أن الخلق كلهم لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم يكتبه الله له لم ينفعوه، وأنهم لو اجتمعوا على أن يضرّوه بشيء لم يكتبه الله عليه لم يضرّوه، من علم ذلك فإنه لا يلتفت إلى الخلق ولا إلى ما يعجبهم ولا إلى ما يرضيهم، وإنما يلتفت إلى الله وإلى ما يرضيه، فيعمل بأحكام الله التي جعل الله العمل بها سبباً في رضاه ومحبه ورحمته وجنته، ﴿وَتِلْكَ الْحَنَّةُ الَّتِي أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

والإخلاص والاستقامة تنتجان عن فهم هذه الحقيقة والعمل وفقها، إذ المخلص هو الذي لا يلتفت إلى مخلوق، ولا يتحرى رضا المخلوق، بل كل أعماله يتحرى بها رضا الخالق سبحانه، فكلما أراد أمراً أو فعلاً نظر وفكر: ماذا يريد الله منه في هذا الأمر؟ فإن كان الله فيه أمر وحكم؛ فعله، وإن كان فيه نهي أو تحريم؛ تركه، وإن أباحه الله وأذن به؛ فعله أو تركه، وبهذا لا يكون له تصرف ولا فعل ولا قول إلا الله ووفق أمر الله، فيكون مستقيماً على أمر الله مخلصاً لله.

كيف نجعل علاقاتنا مع غير الله، ومن نحب ومن نكره؟

- ولما كانت علاقتي مع الله هي الأصل، وهي الأهم، وهي مصلحتي ونفعي وخيري وفائدتي، فلا بد أن تكون أي علاقة أنشؤها مع غيره مبنية على علاقتي مع الله، حتى لا تكون العلاقة مع غيره سبباً في إفساد علاقتي مع الله، فلا بد أن تكون كل

علاقتي مُؤَسَّسَةً على رضا الله والرجوع إليه وإلى حكمه، فيجب أن أُحِبَّ من أمرني ربي بحبه، وأبغض من أمرني ببغضه، وأعطي لأجل الله، وأمنع لأجله، واتباعاً لأمره وحُكْمِهِ، «من أحب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان»^(١).

فالحقائق الإيمانية التي ذكرناها هي الأساس الذي تُبنى عليه العلاقات مع الآخرين، وأحكامُ الله هي التي يجب أن تضبط أي علاقة مع الآخرين، حتى لا تكون على حساب علاقتك مع الله، فبناءً على أحكام الله تحب الآخرين أو تكرههم، وتعطيهم أو تمنعهم، وتواليهم أو تتبرأ منهم، تنصرهم أو تسلمهم أو تقتلهم.

- وكل من أصلح علاقته مع الله ورجع إلى حكم الله؛ فهو يستحق أن أحبه وأكون معه، لأنه تصرف وفق الحقائق الثابتة التي ذكرناها، فكل من يحتكم إلى حكم الله فهو محل قبولنا ومحبتنا ورضانا، بل يصير قدوة لنا، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾^(٢) [لقمان: ١٥].

وكل من خالف حكم الله تعالى وانحرف عنه، فكيف نحبه وقد ترك الحقائق الثابتة التي بينها وانحرف عنها، وكيف نحبه وهو يُسخط الله الذي خَلَقَهُ، إذ جهل قَدْرَ الله، واعتدى على حقه سبحانه في الحكم والتشريع.

ومن هاهنا كان لقضية إرجاع الأحكام إلى الله أو عدم إرجاعها، كان لهذه القضية مدخلٌ في محبة المخلوقين أو بغضهم، فهذه القضية هي أساسُ الولاء أو البراء، فمن احتكم إلى حكم الله الذي ارتضيناه؛ أحبيناه وواليناه ونصرناه وأطعناه، ومن احتكم إلى حكم لم يرتضه الله تعالى؛ عاديناه وكرهناه وتبرأنا منه وخالفناه،

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود رقم ٤٦٨١. وأخرجه الحاكم رقم ٢٦٩٤ وزاد: وأنكح الله، وصححه على شرط الشيخين، ونحوه عند أحمد في مسنده ٤٣٨/٣.

(٢) أي أقبل على الله ورجع إلى أحكامه وشريعته، قال الطبري في تفسيره ج ١٠، ص ٢١١: «وقوله ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يقول: واسلك طريق من تاب من شركه ورجع إلى الإسلام واتبع محمداً ﷺ... عن قتادة: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: أي من أقبل إلي».

وندعوه إلى مراجعة نفسه والاعتراف بحق ربه، وإن رفض قاتلناه حيث أمرنا الله بقتاله.

وهذا الأمر قد يظنه البعض أنه نوعٌ من التشدد والتعصب عند المسلمين، وليس الأمر كذلك، بل إن هذه القضية هي سنةٌ كونية في البشر، أمر متفق عليه عند كل الخلق، فكلُّ أصحابِ ملةٍ أو منهجٍ أو فكرٍ أو مبدأ؛ تجددهم يجعلون ثقافتهم ومبادئهم وأحكامهم هي محورَ المحبةِ والمناصرةِ عندهم.

وهذه الحقيقة بيّنها الله تعالى في القرآن واضحة، إذ بين أن الثقافة والفكر والشرعية والدين هي محورُ المحبة والنصرة عند الناس جميعاً، وكذلك عند المؤمنين، فمن يدعي بأنه يجبك وأنت على خلاف قانونه وحكمه فهو كذاب، ومن يدعي بأنه يجب المسلمين وهو على غير شريعة المسلمين فهو كذاب مخادع للمسلمين، ومن يدعي من المسلمين أنه يجب أحداً من الكافرين - الذين هم على خلاف قانونه وشريعته - فهو يَرْتَضِي شريعتهم وثقافتهم فهو منهم ولم يعد مسلماً، إلا أن يكون يخادعهم ويكذب عليهم.

كل ذلك بينه الله تعالى واضحاً فاسمع إلى إرشاده وهديه وبيانه سبحانه الذي عرفك بهذه الحقائق، ولم يتركك تتيه وتحтар، ولم يدعك ليكذب عليك الكافرون أو يضلوك أو يغرروا بك:

فقال سبحانه: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، فرضى اليهود والنصارى والكافرين وما يَتَّبِعُهُ من محبة؛ متوقفٌ على اتباع ملتهم أي طريقتهم وشريعتهم وثقافتهم وأحكامهم.

والمؤمن - في المقابل - كذلك لا يرضى عن أحد من الخلق ولا يحبهم ولا يواليهم ما لم يكونوا على ملته، قاعدة واحدة ثابتة، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المتحنة: ١]، فانظر كيف

وصف الله مَنْ يكفرون بالحق الذي أنزله أعداء له، ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾ ، فكيف لا نعاديتهم؟ وانظر كيف أنكر الله على من يوالي أعداء الله وينصرهم ويلقي إليهم بالمودعة والمحبة، وهم على خلاف شريعته الحق: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ؟﴾، فاستنكار الله ذلك دليل على أنه أمر مرفوض لا ينبغي أن يكون، كما بين ذلك أيضاً بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا قَوْمًا يُمُونُوكَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ﴾ [يحبون] ﴿مَنْ حَادَّ﴾ [خالف] ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ يبين استحالة اجتماع المحبة مع المخالفة في الشريعة، أي المخالفة لأمر الله ﷻ ورسوله ﷺ، ولا يكون المؤمن مؤمناً إلا بفهم هذه الحقيقة، ومن فهمها فقد فهم الإيمان لذلك وصفهم الله تعالى بقوله مباشرة: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

والله تعالى يحذرك أيها المؤمن أن تجهل هذه الحقيقة، فتوالي الكافر وتناصره أو تحبه، فإن ذلك يخرجك عن ملة الإيمان إلى ملة الكفر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُمْ مِنْهُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، فكيف تكون تزكية بعد جريمة الموالاة للكافرين، أو نقض الولاء لله وللمؤمنين.

والذي يوالي الكافر فقد ذهب حجته أمام الله وباء بسخط الله وحققت عليه العقوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرِئِدُونَ أَنْ جَعَلُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

كما حذرنا الله تعالى أن نغتر بما يبدي لنا الكفار من كلام معسول، وبما يظهرون من صداقة أو تعاون أو محبة، فالقلوب لا يمكن أن تجتمع مع افتراق الشريعة والمبادئ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً﴾ [البطانة: هم المقربون الذين تعتمدون عليهم]

﴿مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [لا يقصرون في إفساد حالكم] ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ [يتمنون ما يرهقكم ويتعبكم ويؤذيكم] ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾ [شدة الكُره والعداوة] ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

- وإذا كان ولأ الكافر ونصرته لمن أحبه من دون الله كبيراً، فحبك أيها المؤمن لله ينبغي أن يكون أكبر وأشد، وما يقتضيه هذا الحب من طاعة الله ولرسوله ﷺ ومن نصرة لدين الله، ينبغي أن يكون أكبر من نصرة الكافرين لثقافتهم وباطلهم، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

- هذه المقدمات العلمية المنطقية الواضحة، التي تُعرِّفُ بمن يستحق أن تتعلق به ونأخذ بأحكامه وأوامره، وتُعرِّفُ بمن يستحق أن نُخلص له ومن يستحق الحب الأكبر والولاء والنصرة، ومن يستحق البغض والعداوة، هي الأساس الذي يصنع أموراً عظيمة في تزكية النفس: فهي التي توجد مقام الاستقامة، ومقام الإخلاص، ومقام الحب.

وحقيقة الحب لله تعطي التعلق به والحضور معه، وتدفع إلى طاعته وترك معصيته.

وفهم هذه الحقائق يجعل الإنسان يحب الأنبياء والمؤمنين، ويدفعه إلى الانتفاع منهم، وإلى صحبتهم ونصرتهم.

وفهم هذه الحقائق يجعل الإنسان يكره الكافرين والفاسقين ويتعد عنهم ويعاديهم، بعد أن يدعوهم، ويمنعه من التعلق بهم أو الأخذ عنهم أو الصحبة لهم، ويمنعه أن يعينهم على باطلهم أو أن يناصرهم.

- وهذه الحقائق وما ينبنى عليها هي التي فهمها الصحابة رضي الله عنهم، فكانوا جيلاً مستقيماً مخلصاً، فإنهم لما أسلموا وعلموا أن الله هو الذي ينفعهم جعلوا

نظرهم إلى حكمه وعملوا بأمره، ولم يلتفتوا إلى سواه، قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَتَيْنَا قُلُوبَهُمْ هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمَرْنَا لِلنُّسْلِمِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الأنعام: ٧١].

وهكذا كل مؤمن ينبغي أن يفقه هذه الحقائق وينبني حياته عليها، فيعيش لربه، ووفق حكم ربه، لا لنفسه ولا لشهوته ودنياه، ولا وفق ما يهواه أو يهواه غيره من الخلق.

- وحب النبي ﷺ حباً أكثر من غيره من المخلوقين ينبني على هذه الحقائق التي ذكرناها في هذا المبحث، وفهم الحقائق المتعلقة بذلك هي التي تصنع هذا الحب وتدعو إليه، وهي التي تصنع ما ينبني عليه من حرص على الاتباع له ﷺ والتشبه به، وهذه الأمور هي فرائض إيمانية واعتقادية، وينبغي عليها تحقيق الفرائض العملية من عبادة ومعاملة وأخلاق وسلوك، لأجل ذلك كان لا بد من تفصيل هذا الأمر والتأكيد عليه، في المبحث الآتي:

المبحث العاشر

قدر النبي محمد ﷺ، ولماذا نجه أكثر من غيره من الخلق؟

لقد أعطى الله تعالى نبيه محمداً ﷺ من الصفات والخصائص ما يدعو إلى إجلاله والتعلق به وحبه أكثر من غيره من الخلق، فمن ذلك:

- مما يدعونا إلى حب هذا النبي العظيم ﷺ أنه كان على أحسن حال وأحسن خلق وأحسن عمل وأحسن معاملة وأحسن عبادة وأحسن قول وأحسن نية وأحسن اعتقاد وأحسن حكم وأحسن قيادة، فليس أحد من الخلق أحسن منه حتى نجه أكثر منه، ولا نحن أحسن منه، فحسبه يدعونا إلى أن نجه أكثر من حبنا لأنفسنا، ومن أعظم دواعي الحب للآخرين جمالهم وحسنهم، والنبي ﷺ هو أحسن الناس وأجلهم صفات، فوجب أن نجه فوق كل حب بين الخلق.

وكونه على أحسن حال وقول وعمل يدعونا إلى أن نتبعه، ففعله خير مما يفعل غيره، وما دلنا عليه خير مما يدلنا عليه غيره، فوجب أن نُقدِّم اتِّباعه على اتِّباع غيره.

ومما يدعونا إلى حب هذا النبي ﷺ أنه كان سبباً في إيصال الخير والهدى لنا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٤﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿[الشورى: ٥٢-٥٣]، فهو أنفع لنا من كل مخلوق غيره، وهو أنفع لنا من أنفسنا، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وهو أعرف بخيرنا من معرفتنا، ﴿وَيَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١]، وهو أحرص على هدايتنا من حرصنا على هداية أنفسنا، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، لذلك كان أولى بنا من أنفسنا، قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

ومن أعظم دواعي الحب للآخرين إحسانهم إليك، والنبى ﷺ هو أكبر محسن إلينا من الخلق، كما تبين لك مما ذكرنا، فوجب أن نحبه فوق حب كل مخلوق.

ومن شدة حرصه على هدايتنا يتحسر ويتألم على من لم يقبل الهداية، قال تعالى:

﴿فَلَا نَذْهَبُ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسِكَ عَلَىٰ عَاقِبَةِ أُنثَرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقد وصف نفسه ﷺ في حرصه علينا أكثر من حرصنا على أنفسنا، فقال ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثال رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادب والقراش يقعن فيها، وهو يذُبُّهنَّ عنها، وأنا آخذ بحجَزِكُم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي»^(١).

ومما يدعوننا إلى حب النبي ﷺ أنه أطاع الله وأرضاه أكثر من غيره، وأحبه الله أكثر من غيره، وأمرنا بحبه أكثر من غيره، وواجبنا أن ننطلق في حب كل أحد من حبنا لله^(٢)، فإذا أحببنا أحداً أكثر منه فقد خالفنا علم الله وحُكْمَه، فالله لا يحب أحداً أكثر إلا لأنه يستحق ذلك الحب، فإذا أحببنا أحداً فوق حبنا له فقد قدمناه عليه وخالفنا ربنا فيما قدم، لذلك أخبرنا النبي ﷺ أنه لا يتم الإيمان إلا بأن نقدم حبه على كل حب، فقال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(٣).

ومما يدعوننا إلى حبه أن الله تعالى جعل أقواله وأعماله تشريعاً لنا، فأمرنا بطاعته ومتابعته، وجعل طاعته من طاعة الله، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وإنما جعل أفعاله وأقواله تشريعاً واجبَ الاتباع؛ لأنه ﷺ لا يفعل إلا ما يرضي الله، ولا يقول إلا ما يرضيه، وهذه السُّلطة التي أعطاه الله إياها سُلطة ربانية عظيمة، في أن تكون أعماله ﷺ وأقواله تشريعاً، وأن تكون طاعته طاعة لله، وهي تدل على أن الله تعالى قد هداه إلى كل خير وحق، وعصمه من كل شر وسوء وباطل، كما

(١) رواه البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه، وقوله بحجزكم: أي بمعقد الإزار أو بالحزام الذي يربط على البطن.

(٢) كما بينا فيما سبق، فالعلاقة الأهم والحب الأهم هو علاقتك مع الله وحبك لله.

(٣) أخرجه البخاري رقم ١٥، ومسلم رقم ٤٤، وفي رواية له: «من أهله وماله والناس أجمعين».

تدل على أنه لا يخالف أمر الله في شيء يفعلهُ أو يقولهُ، هذه السلطة التي أعطاه الله إياها وأخبرنا بها هي التي تصنع عندنا الثقة التامة بأن أقواله وأفعاله ﷺ جميعها حق وخير وموافقة لما يريد الله، ولذلك لا يجوز لأحد أن يقترح عليه أحكاماً، لأن الأحكام أصلاً ليست منه، بل من الله، والله تعالى لا يخطئ ولا يجهل ولا يظن ولا يتوهم ولا ينسى، فلا يجوز أن يقترح عليه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَانْقُؤْا أَلْفَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

- والله تعالى جعل كل نبي أنموذجاً للخير والحق والصلاح والتقوى والهداية، كما قال الله تعالى في عيسى ابن مريم ﷺ: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]، وأنبياء الله كلهم عظماء وكاملون، وقد شاء الله تعالى أن يجعل نبينا محمداً خاتماً للنبين وجعله مبعوثاً إلى الناس كافة، فجعله أعظم مثال للحق وأكملهُ، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، فانظر كيف وصفه بأنه مصدر للنور، فهو السراج والشمس المنيرة التي تستمد الأقيار منه نورها.

- وبعد كل هذا تعلم أن الحقائق التي تدعونا إلى حب النبي ﷺ وطاعته كثيرة، ولم تكن طاعتنا له وحبنا له أمراً عشوائياً مزاجياً تحكيمياً بل المنطق السليم يقتضي أن نقدم طاعته على غيره من الخلق، ونحبه أكثر من غيره من الخلق، ونعظم قدره ونعصم بسترته.

وذلك كله من لوازم إيماننا بالله عز وجل وطاعتنا له وحبنا له.

- إن معرفة الله وصفاته تقتضي حبه، وحب الله مع جلاله ومعرفة حقه يقتضي الخضوع له، والخضوع له يقتضي عبادته، وعبادته لا ينبغي أن تكون خلاف مراده، والنبي ﷺ هو الذي قام بعبادة الله قولاً وفِعْلاً على كمالها، فلزم متابعتها في عبادته، وإن

تابعناه أحبنا الله وغفر لنا، لأننا بمتابعة النبي ﷺ نكون قد أطعنا الله، والله يحب من اعترف بحقه وخضع له وأطاعه وأحبه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

- ومن آمن بالنبي الرسول محمد ﷺ واقتدى به كان أهلاً للحب بقدر متابعتة وموافقتة، وكان أهلاً لأن نتابعه ونطيعه فيما تابع به رسول الله ﷺ وأطاعه فيه ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]، فواجب أن نحب المؤمنين الصالحين على قدر اتباعهم ظاهراً وباطناً، فهذا جمالهم وحسنهم الذي نحبههم لأجله، كما نحبههم على قدر نفعهم لنا، ونفعهم بتذكيرنا بالله وتعليمنا أحكام الله ومساعدتنا في إقامتها.

- ولما كان أصحاب رسول الله ﷺ هم أعظم الناس جمالاً وحسناً بعد رسول الله ﷺ، لأنهم الأكثر اتباعاً للنبي ﷺ، والأكثر موافقة لأمر الله وحكمه؛ وجب حبنا لهم أكثر من غيرهم لأجل حُسْنِهِمْ.

ولما كان الصحابة أكثر الناس إحساناً لنا ونفعاً بعد رسول الله ﷺ، إذ حملوا الدين لمن بعدهم، وجاهدوا وبذلوا، وتركوا لذاتهم وديارهم وأهلهم وأموالهم لأجل مَنْ بَعْدَهُمْ، لما كانوا كذلك وجب حبنا لهم أكثر من غيرهم لأجل إحسانهم إلينا أكثر من غيرهم.

خاتمة الفصل

لقد ذكرنا فيما سبق أهم ما ينبغي أن يعرفه الإنسان من الحقائق، واعتقاد الحقائق يشكل بذاته تزكية للنفس والعقل، لأن النفس لا تكون طاهرة مترقية إذا اعتقدت الباطل، ومعرفة هذه الحقائق واعتقادها هو الذي يشكل الأساس المنطقي الذي يدفع القلب والجسد إلى أعمال التزكية، والعاقل هو الذي يجعل الحكم للعقل على القلب والجسد، فيظهر أثر التعقل والتفكير والمعرفة في توجه القلب ورغباته وعواطفه وإراداته واندفاعاته، التي تؤثر بدورها على الجسد، فإنَّ عَقَلَ الْعَقْلُ الْحَقَّ واعتقده؛ كان القلب والجسد مؤهلاً لأن يكون على خير، وإن جهل العقل وأخطأ الفكر الحقَّ كان القلب والجسد على باطل وانحرف.

البرنامج العملي الموصل إلى تزكية العقل والفكر

الرقم	العمل
١	البحث عن أهم الحقائق في الكون من خلال استعمال العقل بالتفكير والنظر والتعقل
٢	التصديق بالحق عند معرفته
٣	التفكير والنظر في الكون وما فيه وما يدل عليه
٤	حضور دروس العلماء في العقائد وسؤالهم عن الحقائق وأدلتها ومناقشتهم حتى يصل إلى الحق وخاصة دروس أدلة الشرع والعقل على وجود الله وصفاته ودليل المعجزة ودروس شرح الأسماء الحسنى. وإن لم يتمكن من حضور دروس في ذلك قرأ كتباً ميسرة في هذه الموضوعات
٥	التفكير في حقيقة وجود الخالق
٦	طلب الهداية من الله بعد الإيمان به لأنه يملكها
٧	التفكير في صفات الخالق وأنه الحي والعليم والفعال لما يشاء والقادر والمالك والحاكم في ملكه...
٨	التفكير في حقيقة الإنسان ووظيفته ومقصد وجوده
٩	التفكير في رسالات الله إلى الخلق
١٠	التفكير في صدق النبي محمد بن عبد الله ﷺ والتأكد من حقيقة معجزاته وصحة رسالته

١١	تلاوة القرآن التفكير في آياته للتعرف من خلاله على الحقائق المهمة وبراهايتها
١٢	التفكير في حقيقة الدنيا وهوانها وأنها ستفنى وأنها وسيلة ومحل اختبار وابتلاء وكيف يتعامل معها تعاملًا سليماً
١٣	التفكير في حقيقة الآخرة، ووجوب الإستعداد لها
١٤	تذكر الحقائق، لتبقى دافعاً نحو الخير والهدف السليم، ومولداً لأحوال القلب السليمة ودافعاً إلى الأعمال الصالحة، ويتم التذكر من خلال: ذكر الله بالحضور وقراءة القرآن بالتدبر والتفكير في الحقائق السابقة ومجالسة لعلماء الصالحين الذي يعرفون الله وأحكامه ويتحدثون عن ذلك الانشغال بالعبادات ملاحظة الأثر الفطري في النفس الذي يدعو إلى العبادة والانتباه عند وقوع البلايا والأحداث التي توظف العقل والفكر
١٥	تجنب ما يمنع الهداية، وأهمها: التكذيب بالحق، والإعراض عنه، الجهل واتباع الوهم، التقليد، اتباع هوى النفس، الغفلة، تعظيم الدنيا واستحبابها على الآخرة، الكبر والغرور، الظلم، الحسد، قبول وساوس الشياطين وكلام أهل الباطل، شرب الخمر والمسكرات والمخدرات، المعاصي التي قد تغطي النور عن القلب فلا يعقل الحق

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
المنهج المعرفي والفكري لمرحلة الطالبين.....	٥
تمهيد.....	٥
الفصل الأول: حقيقة العقل ووظائفه.....	٧
المبحث الأول: تعريف العقل.....	٩
العقل كما ورد في النصوص ومعانيه.....	١١
المبحث الثاني: قدرات العقل ووظيفته.....	١٥
الفصل الثاني: تركية العقل والفكر.....	٢١
المبحث الأول: تركية العقل بفعل ما يوصله إلى الحق.....	٢٣
خاتمة المطلب.....	٣٣
المبحث الثاني: تركية العقل بترك ما يمنعه من الوصول إلى الحق.....	٣٥
تمهيد.....	٣٥
المطلب الأول: أمور تبعد الإنسان عن استعمال عقله فلا يصل إلى الهداية والحق.....	٣٦
المطلب الثاني: وجود فساد في القلب قد يؤدي إلى الكفر وإلى عدم الانتفاع من الحقائق والعقائد.....	٤٥
تمهيد.....	٤٥
المطلب الثالث: من أعمال الجوارح التي قد تؤدي إلى الكفر وعدم الوصول إلى الهداية.....	٦٣
خاتمة المبحث.....	٦٦
المبحث الثالث: أثر تركية العقل واستقامة الفكر في تركية النفس في سائر جوانبها..	٦٨
الفصل الثالث: المنهج الفكري.....	٧٥
المنهج الفكري وهو ما يجب أن يعرفه المبتدئ وإذا عرفه واقتنع به واعتقده فقد قام بحق تركية عقله وفكره.....	٧٧
تمهيد.....	٧٧
المبحث الأول: من خلقتني؟ من أوجدني؟ وما هي صفاته؟.....	٧٩
كيف تؤدي الحقائق والمقدمات الاعتقادية الإيمانية إلى إنشاء التركية في نفس الإنسان.....	٧٨
المبحث الثاني: مكانة النبي محمد بن عبد الله ﷺ، ما هي أدلة صدقه؟ ولماذا تتبعه ونطيعه؟.....	٩١
المبحث الثالث: من أنا؟ ولماذا خُلِقتُ؟ وما هدي؟.....	١٠٠
المبحث الرابع: ما هذه الحياة التي نعيشها؟ وهل تصلح هدفاً؟ وكيف نستعملها؟.....	١١٠
المبحث الخامس: ماذا بعد هذه الدنيا؟ أين المآل والمرجع؟ ما هو اليوم الآخر؟.....	١١٥

المبحث السادس: ما هي الأحكام والقوانين التي تضبط علاقتي، وأسير عليها في حياتي ؟	١٣٨
الأمر بطاعة الله ورسوله والتمسك والاعتصام بمصادر الأحكام: الكتاب والسنة	١٤٣
أحكام الله تشمل العبادات والمعاملات.....	١٤٦
المبحث السابع: كيف أتعامل مع الخلق والكون على وجه المصلحة.....	١٤٧
المبحث الثامن: ما هو الحد الأدنى من الثقافة والعلوم التي نحتاجها في حياتنا ؟....	١٥٨
المبحث التاسع: ما هي العلاقة الأهم في حياتك ؟ وماذا ينبغي على مراعاتها ؟.....	١٦١
المبحث العاشر: قدر النبي محمد ﷺ ، ولماذا نحبه أكثر من غيره من الخلق ؟.....	١٦٩
خاتمة الفصل.....	١٧٢
البرنامج العملي الموصل إلى تركية العقل والفكر.....	١٧٣
فهرس المحتويات.....	١٧٥